رواية

من رحم النيران

لطيفة قرناوط

من رحم النيران

رواية

لطيفة قرناوط

لطيفة قرناوط.. من مواليد القصبة بالجزائر العاصمة حاصلة على شهادة الليسانس في العلوم القانونية والإدارية وشهادة الكفاءة المهنية للمحاماة، محامية معتمدة لدى المحكمة العليا

صدر لها في الجزائر والأردن مجموعة قصصية بعنوان (نبض الأنوثة لا يموت)

في الجزائر رواية (واهتدت روحي إليك) وديوان شعري تحت عنوان (وللبوح بقية)

شاركت في مجموعة قصصية بأقلام نسائية صادرة في مصر بقصة قصيرة بعنوان (حتى لا تُحرق أجنحتي)

كان يكذب على نفسه، هو يعرف أنه لا يريد للذي يمكن أن يحدث، أن يحدث، هو خائف، مرعوب، وجل مما يمكن أن يحدث لو أنه استسلم، هي كانت الجنة التي يتوق لها المؤمن، وهو كان يعرف أنه لا يملك الرصيد الكافي الذي يسمح له بدخول الجنة، هو كان الجحيم، وهي لم تكن من العاصين المحكوم عليهم بنار جهنم، هما عالمان متوازيان كتب عليهما أن يسيرا في طريقين متوازيين لا يلتقيان أبدا، وهو كان يحترق بلظى هذه الحقيقة التي يدركها أكثر من أي شخص آخر

Designer:Haima Salah

ببلومانيا للنشر والتوزيع

المثقف للنشر والتوزيع

من رحم النيران

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك 8-470-79-9947-978 : (ISBN)
التوزيع الدولي: مصر، لبنان، الأردن، العراق، السودان

اسم العمل: من رحم النيران
اسم المؤلف: لطيفة قرناوط
اسم مصمم الغلاف: شيماء صلاح
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: ح. إيمان

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

من رحم النيران

رواية بقلم/

لطيفة قرناوط

المثقف
للنشر والتوزيع

إهداء

دائما كنت أبدأ إهدائي إلى والدتي لما لها من فضل عليّ في حياتي، ثم إلى والدي.

عندما كتبت هذه الرواية كان الأمر كذلك فعلا، لكنني قبل إرسالها إلى دار النشر عدلت الإهداء وغيرت فيه بعد رحيل والدي في شهر أوت من سنة 2018 وها أنا أكتب بقلب يقطر حزنا:

إلى روح والدي، إلى عراب أبجديتي، ذلك الذي علمني تهجئة الكلمات وتركيب الجمل فتمكنت بعد تركه ليدي وهو يراقبني من غزل عبارات ونسج حكايات، إلى من زرع بداخلي عشق العربية ورحل، أهدي محاولاتي واستمراري، لأنه ما كان ليرضى أن أستسلم وأنسحب فها أنا يا حبيبي أكمل الطريق بشرخ كبير في الروح وجرح مؤلم في القلب تركهما غيابك، طب مقاما يا حبيبي ورحمات الله عليك وسلامه، لي منك الذكرى، ولك مني الوفاء.

إلى نبض روحي وفرح عمري، دائما وأبدا أنت أحق من أهديه نجاحاتي وأفراحي، إلى أمي التي تجعل دائما للحياة في عينيّ معنى يستحق أن يعاش، إليك يا حبيبة قلبي أهدي روايتي المتواضعة.

لطيفة قرناوط

ثم بعد

إلى كل روح يتصارع الحزن والفرح بداخلها

إلى الحزن في قلبك

ذاك الذي احتضنته روحك

ومازال يكبر بداخلك

اقمعيه، اقتليه

أرغميه على الرحيل إن اضطررت

فأنت لا تستحقينه

إلى الفرح في عينيكِ

ذاك الذي حاولت الأيام قتله

لكنه مازال موجودا مختبئا على استحياء

شجعيه، ادفعيه

أرغميه على الظهور إن اقتضى الأمر

فأنت تستحقينه

مقدمة:

لي رغبة جامحة تقضّ مضجعي في أن أقص عليكم قصة ثلاث فتيات: "شيماء" "حوراء" وأنا "غيداء"

تلاحظون أن أسماء الفتيات الثلاثة على وزن واحد رغم أنهن عشنَّ حياةً، لا تعرف إحداهن الأخرى، هي قصة ثلاث شابات، انتفضنّ من ضياعهن، لتكون كل واحدة فيهن في النهاية كما العنقاء، تولد من رحم النيران المنطفئة، بعد اشتعال لهبها وركود رمادها.

تقول الأسطورة أن طائر العنقاء يولد من الرماد، المؤكد أن الرماد لم يكن ليأتي لولا وصول النار إلى أعلى درجات اللهب، فعندما تشتعل حياتك، فتظن أنها تحترق لتنتهي إلى رماد، فإن خوفك لا يبدأ من وصول اللهب إلى رماد، بل يبدأ قبل ذلك بكثير، يولد عندما يستعر بداخلك الجحيم، ساعتها إما أن تترك النيران تحرقك، وإما تنتفض لتطفئ نيرانك وترمم روحك، فتولد من جديد، كما ولدت أسطورة العنقاء أو طائر الفينيق.

ثلاث فتيات، استعر الجحيم بداخلهن، لكنهنّ أبيّن الاستسلام لضعفهن، وراحت كل واحدة فيهن، تحارب في وسط جحيمها، لتخمد النيران، وتولد من رحمها ولادة جديدة، استحقت بها الحياة.

الفصل الأول: أوجاع الماضي

الماضي أبدا لم يمت هو حتى بعد لم يمضِ

ويليام فوكنر (روائي وشاعر أمريكي)

غيداء

كنـتُ فتـاة عاشـقة للحيـاة، منطلقـة بشـكل رهيـب، لا رقيـب لي بغيـاب والـدي الـذي تخـلى عنـي وعـن أمـي وأنـا بعمـر الثانيـة، وكـوني فتـاة وحيـدة، فقـد دللتنـي والـدتي، ولم تحرمنـي مـن شيء مطلقـا، كل مـا أرغـب بـه أنالـه دون تأخـير، وبحكـم أننـي كنـت غنيـة ، لأن والـدتي ورثـت أمـوالا معتـبرة بعـد وفـاة والديهـا، فقـد كنـت مطمـع الكثـير مـن الشـباب، وتقـدم لي العديـد مـن الخطـاب برغـم صغـر سـني.

لم أكـن جميلـة جـدا، كنـت فتـاة ذات ملامـح عاديـة، لكننـي كنـت مميـزة بشـخصيتي المرحـة، وأناقتـي المعروفـة، فقـد كنـت ولازلـت عاشـقة لـ (المودة وعـالم الأزيـاء) وكان شـعري الطويـل المتمـوج أكـثر مـا يجـذب الأنظـار إليّ، ولـكي أصدقكـم القـول كنـت أعشـق نظـرات المعجبـين إليّ، وتغزلهـم بشـعري، أناقتـي، ومرحـي، وأسـتمتع برفـض المتقدمـين لخطبتـي، قـد تقولـون أننـي كنـت مغـرورة، نعـم ربمـا كنـت كذلـك، كنـت طائشـة، ربمـا أيضـا، لكـن ذلـك كان مـن رواسـب تربيتـي، فالحرمـان الـذي عشـته بعـد رحيـل والـدي جعـل أمـي ترغـب في تعويضـه، ولم تكـن تملـك إلا حبهـا ومعـه مالهـا الـذي ورثتـه، فكنـت أنـا أميرتهـا المدللـة، صغيرتهـا التـي لا تكـبر، كانـت والـدتي تحـاول تعويـض النقـص الـذي أحدثـه غيـاب والـدي بإغداقهـا المـال عـليّ حتـى لا أشـعر أننـي أقـل مـن قرينـاتي، ورغـم اعـتراض عائلـة والـدتي في البدايـة عـلى طريقتهـا في تربيتـي، إلا أنهـا وقفـت للجميـع بالمرصـاد معلنـة أنهـا حـرة في تربيـة ابنتهـا، مادامـت تعلمهـا المبـادئ التـي لا يجـب أن تتجاوزهـا، وبالفعـل

وضعـت لي والـدتي منـذ الصغـر، حـدودا يجـب أن أتوقـف عندهـا، مهـما بلغـت مغرياتهـا، والتزمـت أنـا بهـا، فكنـت وحـدي أسَّـير حيـاتي بعبثيـة ربمـا أو بـلا وعـي، لكننـي كنـت أعـرف أنـه مهـما طـال سَـيري وحيـدة، فـإن لي أخـوال قـد يقلبـون العـالم لـو صرخـت مسـتنجدة بهـم، وأن لي أم سـتحرق الدنيـا لـو آذاني فـرد منهـا.

كانـت مراهقتـي عاديـة بـين تعنـت منـي وتفهـم مـن والـدتي، مـرت المرحلـة بسـلام دون تجـارب تحسـب، ولا خسـارات يبـكى عليهـا.

عندمـا بلغـت الثالثـة والعشريـن مـن العمـر، التقيـت حـب حيـاتي "سـامر" شـاب يقـارب الثلاثـين مـن العمـر، طويـل، أسـمر بعيـون زرقاء، و شـعر أشـقر، يشـبه أبطـال السـينما أو عـارضي الأزيـاء، كان مختلفـا عمـن تعودتهـم في عالمـي مـا إن وقـع نظـري عليـه حتـى أدركـت أنـه رجـل حيـاتي، ولكنـه لم يعـرني أي اهتـمام، وكانـت أول مـرة في حيـاتي أقابـل فيهـا بالرفـض، كـدت أفقد عقـلي، وزاد ذلـك تعلقـي بـه، أردتـه بشـدة، وكنـت عـلى اسـتعداد لفعـل أي شيء مـن أجـل الحصـول عليـه، رسـمت الخطـط، وتواجـدت في كل الأماكـن التـي كان هـو يتواجـد فيهـا، حاصرتـه بشـغبي، ومرحـي، وأنـا أحـاول إثـارة اهتمامـه، لكنـه ظـلَّ يقـاوم، ويقـاوم، وظللـت أنـا أحـاول دون أن أفشـل أو أستسـلم، إلى أن رضـخ أخـيرا بعـد رفضـه، بطريقـة كانـت مفاجئـة لي، وتقـدم لعائلتـي يطلـب الـزواج منـي.

رفـض أخـوالي الموضـوع جملـة وتفصيـلا، كـما رفضتـه أمـي، لأن سـامر لم يكـن مـن مسـتوانا المـادي، ولصغـر سـني، لكننـي وكعـادتي عندمـا أريد شـيئا أحصل عليـه، أصررت وقاومـت بطرقـي وحيـلي المعتـادة، هـددت وأضربـت عـن

الطعـام وعـن الخـروج، مارسـت ضغطـا نفسـيا عـلى والـدتي حتـى رضخـت مستسـلمة لرغبتـي المجنونـة بـه، خائفـة مـن أن تفقـد صغيرتهـا الوحيـدة، فوقفـت في وجـه أخـوالي الذيـن وافقـوا في النهايـة عـلى الخطبـة مضطريـن، مـع تأجيـل الـزواج سـنتين.

وافقـت وأنـا أعلـم أن الخطبـة سـتكون الخطـوة الأولى، وأننـي سـأحصل عـلى موافقتهـم عـلى الـزواج قبـل مـرور السـنتين، كعـادتي بهـم دائمـا، وهكـذا أصبحـت خطيبـة سـامر، الرجـل الـذي أردتـه بـكل جوارحـي، بـكل غـروري وبـكل كبريـائي ودلالي.

شيماء

"الشـيماء" ربمـا تتسـاءلون مـن هـي الشـيماء، ومـا دخلهـا في قصتـي، لكـن أريدكـم أن تتذكـروا هـذا الاسـم جيـدا، فالشـيماء لم تكـن فتـاة عاديـة، وهـي تسـتحق أن تبقـى عالقـة في الذاكـرة وإن كان مـن شـخص يسـتحق أن يلقـب بالعنقـاء فالشـيماء بالتأكيـد أكـثر مـن تسـتحق هـذا اللقـب وبجـدارة.

دعوني أحدثكم عن الشيماء

كانـت شـيماء فتـاة تفتقـر إلى جـمال الوجه،لا يحبهـا أحد في دائـرة محيطها، ولا يرغـب الكثيريـن ممـن عرفوهـا النظـر إلى وجههـا، فقـد كانـت ذميمـة الخَلـق، وبشـاعة وجههـا جعلتهـا فتـاة منطويـة منـذ الصغـر. كانـت والدتهـا تُعيِّرهـا ببشـاعتها، وبشـعرها الـذي تتخللـه خصلـة بيضـاء في المقدمـة، وتخبرهـا أن تلـك الخصلـة قـد ورثتهـا عـن أبيهـا، ذلـك الوالـد الـذي هجرهـما، وهـي بعمـر الرابعـة، مـن أجـل أن يتـزوج بأجنبيـة، سـافر معهـا وحصـل عـلى الجنسـية، ونـسي أن لـه عائلـة في أرض الوطـن، لم يطلـق والدتهـا، ولم تجـرؤ هـي يومـا عـلى رفـع دعـوى الطـلاق، وكأنهـا في قـرارة نفسـها مازالـت تحلـم أن يعـود يومـا، نادمـا يجـر أذيـال الخيبـة، وقـد تركتـه زوجتـه الجديـدة، ليعلـن لهـا بعـد عودتـه، ألا امـرأة في العـالم تسـتحق حبـه مثلهـا، عندمـا يـدرك وفاءهـا لـه طيلـة هـذه السـنوات، لكـن الحقيقـة أنهـا لم تكـن وفيـة لحبـه، إنمـا لنفسـها، فغـرور الأنثـى لديهـا مـازال يتعـالى، ويحلـم بعودتـه صاغـرا إليهـا، وإحساسـها بالنقـص، وبالهجـر جعـل منهـا امـرأة غاضبـة، سـليطة اللسـان، وكانـت ابنتهـا منـذ صغرهـا متنفسـها الوحيـد في صـب جـام غضبهـا عـلى العـالم، عليهـا هـي،

بالسب والتقليل من قيمتها وكسر مقاذيفها وطموحاتها، لكن الشيماء أدركت مع الوقت، ألا مهرب لها من هذا الجحيم، فاختارت النجاح والتفوق في دراستها، رغم محاولات والدتها لتعجيزها.

بعد أكثر من عشرين سنة من رحيله كان الأمل مازال يسكنها، والألم يلون حياتها ويجعلها تبث سموم خيبتها في وجه ابنتها المسكينة، التي لم يكن لها من ذنب سوى أنها ابنته وتحمل اسمه ودمه فتذكرها به في كل لحظة، حتى أنها توقفت منذ زمن عن مناداتها شيماء وأطلقت عليها لقب "شمطاء" وسرى اللقب بين الجيران والأقارب فما عاد أحد يناديها إلا به، والمعضلة أنها كانت تدرس مع بنات جيرانها، فتبعها هذا اللقب حتى في مدرستها ووصل إلى جامعتها، لأن بعض من كنَّ معها في المدرسة انتقلنَّ معها إلى نفس الثانوية ونفس الجامعة فأصبحت شيماء "شمطاء" موسومة بقبحها في كل مراحل حياتها، وما عاد أحد يذكر اسم شيماء إلا وثائق هويتها.

عانت شيماء من والدتها التي لم ترحمها ولم تكن الصدر الذي يحتضن حزنها، أم مريضة بكسر روحها من أقرب الناس إليها، فامتلأ قلبها بالغِلِّ الذي لم تسلم منه ابنتها الوحيدة، ثم من تجريح وتنمر أقرانها في الدراسة مذ كانت طفلة إلى أن صارت شابة ترتاد الجامعة، وحتى بعد تخرجها وعدم حصولها على وظيفة، رغم تفوقها في مجالها، بالإضافة إلى إتقانها سبع لغات أجنبية، لكن بمجرد تقدمها للمقابلة الشفوية تعرف نتيجة اللقاء وقد قرأت على وجه مُستقبِلها قرفا وخيبة، لكنها لم تستسلم يوما، لقد تعلمت منذ زمن كيف ترسم اللامبالاة على وجهها البشع

فيـزداد ربمـا بشـاعة، لكنهـا تعـرف أن الأمـر سـيَّان فـكل مـا ترتجيـه هـو ألا تبـدو منكـسرة أمـام أحـد، فقـط أمـام نفسـها تـترك العنـان لخيباتهـا بالظهـور، لدمعاتهـا بالهطـول ولأوجاعهـا بالـبروز، فقـط نفسـها كانـت صديقـة روحهـا في وحـدة فرضهـا عليهـا عـالم لم يرحـم ضعـف أنوثتهـا، ولم يـدرك طيبـة قلبهـا ولم يأخـذ جهـدا بسـيطا لـيرى جـمال روحهـا.

كانـت شـيماء تعـاني مـن تنمـر الأطفـال في المدرسـة والحـي ولم تسـلم مـن وقاحتهـم وسـلاطة ألسـنتهم وعانـت وهـي في سـن المراهقـة مـن الرفـض، فلـم تجـد صديقـة تفـضي إليهـا بمكنونـات وجعهـا ولا رفيقـة تواسـيها في وحدتهـا، تألمـت مـن كلـمات نابيـة وعبـارات جارحـة كان يلقيهـا الشـباب بمرورهـا عليهـم، تحـاول ألا تلتفـت إليهـا لكنهـا ككل مراهقـة في عمرهـا كانـت أنوثتهـا المخبـأة بداخلهـا تهفـو إلى كلمـة غـزل أو نظـرة إعجـاب، كأي مراهقـة كانـت تريـد أن يُنظـر إليهـا ولـو لمـرة واحـدة في حياتهـا نظـرة لا يملأهـا القـرف ولا الشـفقة، لكنهـا مـع الوقـت أدركـت أنهـا لـن تحصـل عـلى تلـك النظـرة وسـكنها اليقـين أنهـا فتـاة ملعونـة.

تتذكـر شـيماء قصـة حدثـت لهـا عندمـا كانـت في السـابعة عـشر مـن عمرهـا، مـرّ عليهـا شـاب تفـوح منـه رائحـة الخمـر يترنـح جسـده، وتشـتعل عينـاه بحمـرة غريبـة، نظـر إليهـا نظـرة عجيبـة أخافتهـا وجعلتهـا تتراجـع بخطواتهـا إلى الـوراء، فتبسـم الرجـل وهـو يقـول لهـا (لديـك شيء جميـل لكننـي لا أسـتطيع تحديـده) ثـم مـضى مكمـلا طريقـه.

بقيـت الذكـرى عـلى غرابتهـا عالقـة بمخيلـة شـيماء لأنهـا كانـت المـرة الوحيـدة التـي يربـط شـخص بينهـا وبـين الجـمال، تسـتعيدها الشـيماء في ذاكرتهـا ولا

تعـرف أتبتسـم مـن جـمال تأثيرهـا عليهـا أم تضحـك عـلى خيبتهـا وسـذاجتها في التعلـق بجملـة ألقاهـا شـخص لم يكـن في وعيـه حتـى، لكنـه الحرمـان كان يلهـو بهـا وقسـوة مجتمـع لا يتـوانى عـن خـدش روحهـا الهشـة.

كان يمكـن للشـيماء أن تنحـرف عـن الطريـق السـديد، وتضيـع حياتهـا في سـبيل نظـرة وكلمـة، حتـى لـو كانـت كاذبـة لـولا سـتر اللـه بهـا، في مراهقتهـا تعرضـت الشـيماء لحادثـة غريبـة توقفـت سـيارة أمامهـا يومـا مـا بهـا رجـل يبـدو أنـه قـد تجـاوز العقـد الرابـع مـن العمـر بقليـل، وطلـب منهـا الركـوب معـه، مخـبرا إياهـا أنـه لا يريـد إلا أن يـشرب فنجـان قهـوة معهـا، ارتبكـت حينهـا وراودهـا خاطـر رهيـب في تلبيـة الدعـوة الغريبـة والوحيـدة التـي تلقتهـا في حياتهـا تطلـب صحبتهـا، لكـن التعقـل كان سـيد الموقـف في الأخـير، أو ربمـا هـو الخـوف مـا جعلهـا تهـرب مـن أمـام السـيارة، بخطـوات راكضـة وقلـب يخفـق بسرعـة لا متناهيـة، كانـت فـترة مراهقـة الشـيماء متذبذبـة لكنهـا ولحسـن الحـظ مـرت دون كـوارث.

بعـد سـنوات مـن الركـض هنـا وهنـاك مـن أجـل الحصـول عـلى وظيفـة، أيـة وظيفـة كانـت، اسـتقر في اعتقادهـا أنهـا لـن تحصـل أبـدا عـلى هـذا الحلـم الهـارب منهـا، كأنـه هـو أيضـا يهـرب مـن بشـاعتها.

لطالمـا كانـت تنظـر في المـرآة تتلمـس أنفهـا المحـدودب وشـفتاها المنتفختـان، تنظـر إلى عينيهـا المنحنيتـين إلى الأسـفل كأن الرغبـة في النـوم تسـكنهما طيلـة الوقـت، حتـى أنهـا كانـت تعـاني بعـض المشـاكل في الرؤيـة نتيجـة سـقوط جفنيهـا بشـكل أكـبر مـن المعتـاد عـلى عينيهـا، كانـت تخـبر نفسـها ألا عجـب أن النـاس يقرفـون منهـا، فهـي ذاتهـا تقـرف مـن هـذه التقاسـيم التـي هـي

تقاسيمها، لكنها في كل مرة تتفحصها تفاجأ بكم البشاعة التي تغلفها، سكنتها نظرة الغير إليها حتى صارت ترى نفسها بأعين الناس التي لا تعرف روحها ومعدنها، عانت في مراهقتها من عقدة شكلها وجدوى وجودها في هذا العالم، ولم تكن تفهم أو تستوعب لمَ خلقت بهذه البشاعة ولماذا خلقت أصلا؟ ولطالما فكرت في الانتحار من شدة اليأس الذي كان يصيبها نتيجة استهزاء زميلاتها في الدراسة منها ومن شكلها العجيب، ومن التعليقات الجارحة من الناس في الخارج، خاصة منهم الذكور إلا أن الشجاعة كانت تخونها أو ربما هو لطف الله بها الذي كان وحده يرعاها ويحضرها لقدرها، لكنها عاشت فتاة انطوائية لا تعيش إلا بين البيت ومكان دراستها، وتغرق في الكتب وعالم الانترنت، كان لها عالمها الذي تسبح فيه وتحلق روحها طائرة في سماء لا يصلها البشر الذين يؤذونها. الشيماء فتاة لم تألف البوح بما يختلج في صدرها، يؤرقها صمتها ويثقل على صدرها لكنها لا تملك صديقة تشاطرها همومها وتشاركها أحزانها، لقد اختارت منذ زمن أن تكون وحيدة أو ربما لم يكن اختيارا هي هكذا معجونة من الصمت والوحدة والخيبة، تختنق إذا كثر الضجيج من حولها. أدركت باكرا أنها ليست بهذا الجمال الذي يجعل الناس يصرون على التواجد في حياتها، لكنها أدركت أيضا أنها لا تتذمر من وحدتها، ربما لأنها عرفت أن تجنب الناس في هذا الزمن الصعب أأمن لقلبها من محاولات إرضائهم، هي لم تختر وحدتها عن طواعية منها، لكنها تعلمتها وألفتها، من خانها من قبل هو سبب وحدتها اليوم، من أوجع قلبها من قبل هو سبب اختيارها، ليس بالضرورة أن يكون الخائن رجلا، إنما هم من ظنناهم أصدقاء، أقرباء، أوفياء، بينما أوجعونا ومضوا، أكملوا

حياتهم دون أن يلتفتوا، ومن منا لم يحدث له شيء من هذا، من منا لم يوجعه من ظنه صديق وادخره ليوم الضيق، فإذا به يزيده هما وضيق ويتركه على خيبته يستفيق.

لم تكن شيماء تعيش حياة امرأة عادية، لم تكن تحلم بالحب ولا بالزواج ولا بفارس الأحلام، ذاك الذي يأتي على حصان أبيض أو حتى يسير حافي القدمين، فهي أدركت منذ زمن ألا فارس في الحياة الواقعية سيرغب بالشمطاء، الشمطاء كانت تعرف أنها لم تخلق لتكون زوجة، وأي رجل هذا الذي سيقبل بها، كانت ترفض مشاهدة الأفلام والمسلسلات الرومانسية، ترفض قراءة الروايات، تهرب من كل ما يمكن أن يذكرها أنها امرأة في ثوب شيطان ولدت محرومة وستموت محرومة، تغرق في الكتب العلمية والكتب التي تحكي عن الفضاء والعالم الآخر، تعشق اللغات، تعلمت أربع منها فقط من الانترنت، وعززت لغاتها الثلاثة الأخرى التي درستها في المدرسة والجامعة (العربية، الفرنسية والانجليزية) من خلال فيديوهات تعليم اللغات، تقرأها بسلاسة، وتتحدثها بطلاقة، لكنها ولسوء حظها كانت تحدث بها نفسها فقط، إذ لا سبيل آخر لتبرز فيه تميزها.

" شمطاء " هذا ما كانته دائما في عيون كل من عرفها مذ كانت طفلة، وقد صدَّقت منذ وقت طويل أنها كذلك، لا يمكن أن تكذب على نفسها، فلا يعقل أن يخطئ العالم كله، وتَصْدُقَ هي، حتى أنها بدأت بإطلاق هذا اللقب عليها وهي تحدث نفسها.

" شمطاء " كان وصفا دقيقا لها بل وصل بها اليقين أنها بدأت تؤمن أن اسمها "الشيماء" لم يأت هباءً على وزن "الشمطاء".

حوراء

كانـت طرقـات حـذاء "حـوراء" ذو الكعـب العـالي تنـذره بقدومهـا، لم يرهـا منـذ ثلاثـة أشـهر، منـذ ذلـك اليـوم الـذي رآهـا خارجـة مـن أحـد الملاهـي الليليـة، رفقـة غريمـه، الـذي مـا إن رآه حتـى انشـقت شـفتاه عـن ابتسـامة عريضـة، ابتسـامة نـصر وتشـفٍ، ابتسـامة تقـول في صمـت (هـا قـد نلتهـا، عـذراؤك الوديعـة التـي بعـت صداقتـي مـن أجلهـا يـوم خيرتـك هـي بينـي وبينهـا، هـا هـي امـرأة خائنـة مثـل كل النسـاء الـلاتي عرفتهـن قبلهـا، امـرأة خائنـة تبيـع نفسـها لمـن يدفـع أكـثر).

اقـترب هـو منهـا يومهـا بوجـه يغلفـه السـواد وبصـق بعنـف عـلى وجههـا احتقـارا وازدراءً، ثـم تركهـا وانـصرف دون أن يتلفـظ بكلمـة واحـدة.

لا هـي حاولـت الاتصـال بـه بعدهـا، ولا هـو أراد أن يفعـل، لقـد قتلهـا يومهـا بقلبـه أو هكـذا يحـاول منـذ ذلـك اليـوم لكـن دون جـدوى، فقـد اكتشـف أنـه أحبهـا أكـثر مـن قدرتـه عـلى النسـيان، حبهـا زرع جـذوره في قلبـه كشـجرة عتيـدة، وأورق ورودا وفـلا وياسـمينا، حتـى أضحـى جنـة بداخلـه يعيـش معهـا عـلى عطرهـا الفـواح.

تسـاقط كل هـذا يـوم رآهـا في تلـك الليلـة، لكـن شـجرة الحـب التـي نمـت في قلبـه ترفـض المـوت، شـجرة حبهـا مازالـت متمسـكة بتربتهـا داخـل قلبـه المكلـوم، ترفـض أن تمـوت، تـأبى التخـلي عـن موطنهـا، تقـاوم رغبتـه ومحاولاته المسـتميتة في اقتـلاع جذورهـا مـن تربـة قلبـه وترفـض تركـه ينـسى أو يرتـاح.

لقـد أحـب امـرأة خائنـة، تلـك هـي الحقيقـة التـي اكتشـفها متأخـرا، حبهـا

أضعفـه، كـسر الرجـل الـذي كانـه قبلهـا، ورغـم معرفتـه لتلـك الحقيقـة إلا أنـه غـير قـادر عـلى النسـيان، غـير قـادر عـلى اقتـلاع جـذور حبهـا مـن قلبـه. منـذ رأى حقيقتهـا تلـك الليلـة المشـؤومة وهـو يتوسـلها في سره كي ترحـل عنـه يناشـدها ولسـان حالـه يقـول:

(حبـك مـوت وعشـقك وجـع، توقفـي عـن إيلامـي، توقفـي عـن قتـلي فأنـا روح معلقـة، معذبـة يعاندهـا المـوت، ارحـلي مـن داخـلي، عهدتـك دائمـا صاحبـة كبريـاء، دعـي كبريـاءك ينتفـض واهجـري قلبـي، دعيـه يفـرغ منـك وأعـدك ألا أدعـه يحـب غـيرك، فالحـب كان عنـدي منـذ الأزل خطيئـة، الحـب عنـدي ذل وخسـارة ومـا عـدت بعـد الـذي فعلتِـه بقـادرٍ عـلى الـذل ولا عـلى تقبـل الخسـارة.

بربـك كيـف ترتضـين المكـوث في قلـب لا يريـدك ؟ كيـف تقبلـين السُـكنى داخـل عقـل يرفضـك؟

لسـت بقـادرٍ أنـا عـلى النسـيان، أقـر وأعـترف، لكننـي لا أريـدك، سـأترك نـار حبـك تحرقنـي لكننـي لـن أعـود، أعـدك أننـي برغـم قلبـي ورغـم حبـي لـن أعـود، أعـدك برغـم وجعـي لـن أضعـف، أعـدك برغـم هـذا النابـض بداخـلي باسـمك، لـن يسـتكين حقـدي عليـك ولـن يمـوت، أعـدك برغـم الظلمـة التـي أغرقنـي فيهـا غـدرك لـن ألجـا إليـك حتـى لـو كنـتِ منبـع النـور، فارحـلي أنـت، إذا كنـت كـما ادعيـت دائمـا صاحبـة الكبريـاء، ارحـلي واتركينـي لحقـدي وظلمتـي والـشرور، فلتكـوني أقـوى منـي، طعنتنـي بخنجـر الغـدر، فاجهـزي عـليّ بسـيف الإهـمال والـترك واخرجـي مـن قلبـي).

الفصل الثاني: الضياع

الصامتون، إما يحملون هما كبيرا أو حلما كبيرا

أحمد الشقيري (إعلامي وكاتب سعودي)

غيداء

لا أعلم لماذا أكتب قصتي اليوم، فبعد كل ما حدث بيني وبينه وجدت نفسي أضيع في وحدتي، ولأن قلبي تألم كثيرا من الخذلان أصبحت أحتجب عن الناس، أنزوي في ركني العتيق أحاول مداواة جراحاتي والأحزان، لم أعد قادرة على فتح قلبي لصداقات جديدة ولآمال أعرف مسبقا أنها ستخيب لأن الناس استسهلت الغدر والخديعة والهجران دون مراعاة أن القلوب التي يهجرونها ستصاب بشيخوخة المشاعر وستفقد القدرة على الثقة، كنت أضيع فعليا، حتى بدأت بالكتابة، وجدتني أول مرة أكتب رواية عن حب مستحيل بين رجل أشقر بعيون زرقاء وفتاة من عائلة غنية بجمال عادي وشعر متموج.

كنت في غرفتي، أتذكر عندما خطت يدي خاطرة ساعتها تقول:

حزينة أنا والحزن أصبح شعاري

البؤس لون كل خواطري وأشعاري

تائهة أراقب خيبتي واندثاري

ضائعة أركض في أزقة أسراري

والموت قد غدا يرحب بانصهاري

سأغيب راجية أن أجدني وأجد دياري

وقد يأخذني الغياب إلى نهاية أسفاري

ثم قلبت الصفحة وبدأت في رسم الأفكار التي كانت تنزلق على ورقتي

بطريقـة سلسـة جـدا، بعـد حـوالي سـاعة مـن الكتابـة تعقـدت القصـة، ومـن شـدة الهيبـة التـي تملكتنـي أردت أن أقفلهـا بنهايـة تعيسـة لكننـي نظـرت إلى الأوراق التـي قاربـت الخمسـين وصـوت بداخـلي يقـول (تسـتطيعين فعلهـا) فانكفـأت عـلى أوراقـي وواصلـت الكتابـة حتـى أدركـت أن الوقـت قـد تأخـر وعـليّ التوقـف، لملمـت كنـزي ونمـت سـويعات قليلـة وقـد أنهكنـي التعـب والسـهر، غـير مصدقـة أننـي كتبـت بدايـة روايـة، بمجـرد وصـولي في الغـد للجامعـة مـددت يـدي بـالأوراق إلى صديقتـي وقلـت لهـا:

ـ اقرئي

راحـت صديقتـي تقـرأ دون أن تفهـم مـا ذاك الـذي تقـرأه، وفجـأة فلتـت منهـا ضحكـة صغـيرة، فسـألتها بلهفـة:

ـ لماذا تضحكين؟

فأجابتني

ـ لقطة القطار

لم أصـدق سـاعتها أننـي أوصلت لها الإحسـاس لدرجة أنها ضحكـت بصوت عالٍ توقفت عن القراءة وهي تسألني:

ـ ما هذا؟

فأجبتها بخجل:

ـ لقد كتبتها بالأمس

بمجـرد رجوعـي للبيـت عـدت إلى أوراقـي أنظـر إليهـا برهبـة شـديدة، ولم أكـن قـد أيقنـت أن اللـه منحنـي هبـة مميـزة، قبلهـا كنـت أكتـب الخواطر والشـعر وبعـض القصـص القصـيرة فقـط.

كنـت خائفـة مـن أن تكـون ليلـة الأمـس، مجـرد لحظـة تلبسـتني فيهـا روح غريبـة وغادرتنـي، أمسـكت القلـم بيـد مرتعشـة وبـدأت في الكتابـة فوجـدت قلمـي يجـري عـلى الأوراق البيضـاء يلونهـا بسـطور زرقـاء متراصـة.

في الأيـام التـي تلـت كنـت متلهفـة كل يـوم للعـودة للكتابـة ومـع الوقـت ازدحمـت الأفـكار في عقـلي، فأصبحـت أكتـب في المسـاء وفي الليـل أيضـا عندمـا وصلـت إلى نهايـة الروايـة كان ذلـك في ليلـة كنـت أسـابق فيهـا أفـكاري حتـى لا تهـرب منـي، نفـذت منـي الأوراق البيضـاء فأخـذت أمـزق كل ورقـة مزدوجـة في محفظتـي لآخـذ منهـا الجهـة الفارغـة وأكتـب عليهـا، كتبـت عـلى أوراق ورديـة وبنفسـجية وصفـراء، ثـم نفـذ الحـبر مـن أقلامـي الزرقـاء وأنـا مازلـت أسـابق أفـكاري فاسـتعملت السـوداء، ثـم لجـأت للحمـراء بعـد نفـاذ حبرهـا، حتـى كتبـت أجمـل كلمـة أحسسـتها في هـذه الرحلـة (تمـت)

انتهـت روايتـي الأولى عـلى السـاعة الثالثـة فجـرا، أخـذت أنظـر إليهـا بفـرح يعـادل فـرح امـرأة أنجبـت طفلهـا الأول بعـد أن عاشـت عمرهـا معتقـدة أنهـا عقيـم ولا يمكنهـا الإنجـاب.

روايتـي الأولى تبقـى في قلبـي طفلتـي البكـر، أول فرحتـي وأول إيمـاني بـأن اللـه اختـارني ليهبنـي عطيـة مميـزة.

طفلتـي الأولى حملـت اسـم (مـرام المجـد) كانـت قصـة رجـل فقـير أحـب فتـاة غنيـة، وتحـدى العـالم مـن أجلهـا، تحـدى رفـض عائلتهـا لـه، تحـدى ظروفـه الصعبـة وصنـع نجاحاتـه بعيـدا عـن عائلتهـا لتنتهـي القصـة بـزواج الحبيبـين، وانتصـار الحـب، قصـة مألوفـة تشـبه قصـص الحـب منـذ الأزل بتفاصيـل مختلفـة نعـم، لكنهـا كانـت نمطيـة، ونجحـت الروايـة لأنهـا كانـت

ترسم الخيال، وتزين الأحلام، وأحب الناس هذا البطل الذي حارب الدنيا من أجل الفوز بحبيبته، فالناس تحب الخيالات والنهايات السعيدة، خاصة منهم البنات.

لقد اكتشفت أن هناك من القارئات من لا تشتري رواية إلا إذا فتحت آخر صفحاتها وتأكدت من أن النهاية سعيدة، وإلا تركتها ومضت بحثا عن السعادة في رواية أخرى، يمكن أن تتقبل الواحدة منهن الحزن والشجن طيلة صفحات الرواية التي قد تفوق الخمسمائة صفحة، لكنها لن تتقبل أبدا بل لن تغفر للكاتب أنه أنهى روايته نهاية حزينة، وقضى على أحلامها باجتماع البطل والبطلة وانتصار الحب والخير دائما على الكره والشر، وهكذا فعلت أنا في روايتي الأولى، أنهيتها بالفرح والأمل، و(عاشا سعيدين إلى الأبد) لكن الواقع يختلف.

أحاول أن أجد تفسيرا لهذه الظاهرة الغريبة ولا أجد، وأعود للتفكير في أننا شعب تفتقد نساؤه الفرح، وتعيش جفافا عاطفيا يجعلهن يبحثن عن السعادة في الكتب والروايات، نحن مجتمع خلت أغلب بيوته من التعبير عن الحب وكأن الرجل إذا قال لزوجته أحبك أضحى رجلا ضعيفا خاضعا لزوجته، أستغرب من بعض الناس يعتبرون الحب حراما رغم أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام عندما سُئل عن أحب الناس إليه قال (عائشة) زوجته وعندما قيل له ثم من؟ قال (أبوها) وكان يقول عن أمنا خديجة رضي الله عنهم جميعا (إني رزقت حبها) أوليس هو قدوتنا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، كان يجاهر بحبه لزوجته، فلماذا لا يقتدي به رجالنا؟ لماذا لا يدركون أن الزوجة تفني عمرها في

خدمـة زوجهـا وأولادهـا، لا تنتظـر شـكرا ولا عرفانـا، لكـن كلمـة حـب قـد تمنحهـا عمـر إضافيـا وطاقـة إيجابيـة تجعلهـا تعطـي أكـثر وهـي راضيـة.

لمـاذا لا نتعلـم كيـف نمـلأ بيوتنـا حبـا ومـودة؟ ألم يقـل الله جـلَّ وعـلا (وجعلنا بينهـم مـودة ورحمـة) فالحـب ليـس حرامـا، والتعبـير عنـه بـين الأزواج ليـس ضعفـا، والتصريـح بـه ليـس جريمـة.

أتذكر أني نشرت يوما منشورا على صفحتي الفيسبوكية كتبت فيه:

ـ عـودي إلى حضنـي راضيـة أو مكرهـة فـلا منـزل يحتويـك كصدري، أنـا الرجل الشرقـي، أنـا الرجـل الغبـي الـذي يعشـقك في صمـت ويخـبرك كلـمات لاذعـة تُبكيـك حبـك لي، لكننـي واللـه لا أقصدهـا، كلـما أوجعتـك تأكـدي أني أردت أن أمدحـك، لكننـي لم أتعلـم كيـف أفعلهـا، وكلـما آذيتـك تيقنـي أننـي في حالـة غـيرة أعمتنـي وأشـعلت كلـماتي نيرانـا، أنـا الرجـل الـذي يقـول لـك لم ترتديـن هـذا الثـوب، عندمـا يريـد أن يقـول أنـت رائعـة في هـذا الثـوب، أنـا الأحمـق الـذي يقـول لـك لا تغـادري البيـت، عندمـا يريـد أن يترجـاك ألا تغـادري حياتـه، أنـا الخائـف الوجـل الـذي لا يريـد أن يريـك حجـم عشـقه الـذي بلـغ عنـان السـماء، لأنـه يخـشى أن تزهـدي فيـه لأنـه أضحـى أسـير حبـك، حيـاً في دنيـاك، ميتـاً في بعـدك، أنـا الرجـل الشرقـي الـذي رأى أمـه تعشـق والـده الـذي كان دومـا قاسـيا وعلمـه أن الرجولـة هـي أن تكـون شـديدا كتومـا، أنـا العليـل بحبـك الـذي يغلـف ولهـه بـك بـلا مبـالاة كاذبـة، أنـا العاشـق سـيدتي الـذي يعذبـه عشـقه وتخنقـه كلـمات يريـد البـوح بهـا لـك، لكنهـا تـأبى الخـروج، أنـا العاشـق الـذي يريـد أن يقـول لـك في كل ذبحـة صـدر وغصـة حلـق وكتمـة شـعور (لا تـتركي حضنـي فـلا منـزل يحتويـك كصـدري)

أتذكر أن أغلب من وضع إعجابا للمنشور هم الرجال، بل كان أكثرهم يشيرون لزوجاتهم حتى يقرأنه وكأنني قلت ما عجزوا عن قوله، أو ما خجلوا عن التصريح به، وكأن منشوري كان تفسيرا أو تعليلا لتفهم زوجاتهم أنهم عاشقون لكن ليس لهم الحق في التصريح بذلك، نحن فعلا مجتمع شرقي متناقض، الحب فيه بين العشاق جائز وبين الأزواج محرم.

بعد كل كل الذي حدث بيني وبينه، وجدت رغبة جامحة تجتاحني بكتابة قصة أخرى، بطلها شاب أشقر بعيون زرقاء وفتاة بجمال عادي وشعر متموج، لكنها هذه المرة قصة حقيقية وليست قصة حالمة، هي قصتي أنا "غيداء" و "سامر".

كان "سامر" يدرك جيدا مدى تعلقي به، ويعرف أنني فتاة لم تتعود على الرفض، لكنه اعتمد أسلوبا آخر معي، مبني على قاعدة (كل ممنوع مرغوب، وخالف تعرف) فكان لا يجيب طلباتي حتى البسيطة منها، كرغبتي في الخروج معه إلى مكان ما، فيصحبني إلى مكان آخر، وعندما أعترض يخبرني أنه الرجل وأن كونه أفقر مني لا يعني أن ألغي رجولته وأتحكم فيه، فأغرق أنا في الاعتذار، وتفسير الأمر وأنني لم أقصد ذلك، أنني أحبه وأنه بعينيّ أغنى الرجال وأعظمهم، أدركت مع الوقت حساسيته تجاه فارق المستوى المادي بيننا، فأصبحت أتجنب إثارتها بالانصياع له وإطاعته في كل شيء، أدركت أنه على استعداد لقطع العلاقة بمجرد المساس بكرامته كرجل، فرحت أتنازل عن كرامتي أنا كأنثى حتى لا أؤديه، كنت مستعدة لقبول أي شيء منه إلا الهجر والتخلي.

وهكذا أصبحت ظل امرأة، فتاة بلا شخصية، اختفى مرحي المعتاد،

وانصهـرت شـخصيتي في طغيـان شـخصيته، لأصبـح فتـاة بـلا ملامـح، لكـن الأدهـى والأمـر أننـي كنـت راضيـة تمـام الرضـا رغـم احتجاجـات والـدتي، وملاحظـات أصدقـائي الذيـن كانـوا يحثوننـي عـلى نفـض هـذا الـذل مـن عـلى كتفـيّ، لكننـي كنـت أبـرر دائمـا أن الحـب عطـاء، والمحـب لا يتـوانى عـن إعطـاء روحـه لمحبوبـه، ولأننـي كنـت عاشـقة كان يكفينـي مـن الدنيـا أن يحبنـي "سـامر" وكفـى.

كنـت أشـعر بحصـاره حبـا كنـت أحتاجـه طيلـة حيـاتي، وبغيرتـه وتملكـه اهتمامـا افتقدتـه طـوال عمـري، وبكرامتـه التـي كانـت تعلـو عـلى حطـام كرامتـي رجولـة لم أعرفهـا يومـا بهـذا القـرب، رضيـت أن أسـير في الحيـاة أتبـع الخطـوات التـي يرسـمها هـو لي دون أن أسـأل إلى أيـن سـتوصلني، أن أختفـي وراءه وأذوب في حضـوره حتـى لا يشـعر أحـد بوجـودي في حضرتـه، أتـلاشى في غيابـه كذكـرى باهتـة محتهـا السـنون الطويلـة، حتـى تطمـئن روحـه إلى أننـي وفيـة لـه، لأعـود وأحيـا تحـت ظلـه فقـط كعبـد يتبـع سـيده، أو طفـل قـاصر لا يملـك مـن أمـره شـيئا.

إلى أن جـاء ذلـك اليـوم الـذي خرجـت عـن خـط سـيره للحظـات كلفتنـي التقهقـر إلى الـوراء أكـثر، عندمـا اكتشـفت أمـرا كاد يتسـبب بجنـوني، وجدتـه يومهـا يُحـدث امـرأة أخـرى عـلى الهاتـف، يمازحهـا بطريقـة غريبـة لم يمازحني يومـا بهـا، ويضحـك لهـا ضحكـة لم يمنحهـا لي قبـلا، ويُسـمعها كلـمات تسـببت في الذهـاب ببصـيرتي، وزاد في جنـوني أنـه كان يقـول لهـا ويـردد (الدنيـا كلهـا ترضـخ لـك وأنـا أول معـالم هـذه الدنيـا).

فقـدت عقـلي وأنـا أسـمع هـذه الجملـة، أيـن ذهـب كبريـاؤه الـذي أطفـأني

بـه؟ أيـن ذهبـت صرامتـه التـي قتـل بهـا بشاشـة روحـي؟ أيـن ذهـب وقـاره الـذي أسـقطني أسـيرة عشـقه؟ مـن تلـك التـي تأخـذ منـه مـا لم أره فيـه؟

هجمـت عـلى هاتفـه أنتزعـه منـه في غفلـة منـه، وقـد ضـاع عقـلي مني، أشـتم المـرأة التـي كان يحادثهـا وأنـا أصرخ بهـا أنهـا سـاقطة تحـاول خطـف رجل من امرأتـه، وأن سـامر هـو خطيبـي ورجـلي أنـا، أهددهـا أن تبتعـد عـن حبيبـي وأننـي سـأعرفها وأفضحهـا، كان الخـط قـد أغلـق مـن الجهـة الأخـرى وأنـا مازلـت أشـتم وأتوعـد، ولكـن سـامر انتـزع الهاتـف منـي وهـو ينظـر إلي نظرة تـكاد تحرقنـي شرارات الغضـب الصـادرة منهـا، ورحـت أدافـع عـن نفـسي بـأن اتهمتـه بأنـه يخوننـي مـع امـرأة أخـرى، لكنـه لم يـرد سـوى بتلـك النظـرات المحرقـة، ثـم اسـتدار وتركنـي أحـترق مـكاني، وانـصرف غـير آبـه بي ولا محـاولا تفسـير الأمـر أو حتـى معاتبتـي، تركنـي أتقـد غضبـا لأعـود وانصهـر خوفـا. بعدهـا غـاب عنـي لمـدة أسـبوع كـدت أمـوت فيـه مـن قلقـي وهلعـي مـن أننـي فقدتـه إلى الأبـد، في اليـوم السـابع رد أخـيرا عـلى اتصـالي بعـد أن تجاهـل مئـات الاتصـالات السـابقة خـلال الأيـام السـتة التـي خلـت.

جاء صوته هادئا لكنه يبدو غاضبا:

ـ نعم

انطلقت كبركان هادر وقد افتقدته حد الرغبة في الموت بدونه:

ـ سـامر أيـن أنـت حبيبـي، لمَ لا تـرد عـلى اتصـالاتي، أنـا آسـفة أعـرف أننـي أغضبتـك، لكنهـا الغـيرة، سـامر أرجـوك، أنـت تعـرف أننـي أحبـك، سـامحني حبيبـي لـن أعيدهـا مـرة أخـرى، لـن أسيء التـصرف أنـا فقـط أريـدك بجانبـي، اشـتقت إليـك جـدا، لا تتركنـي أرجـوك أنـت تعـرف أننـي قـد أمـوت بدونـك.

سكتتُ قليلا وأنا أترقب رده بينما دقات قلبي هادرة، لكن صمته استمر فرحت أناديه باكية:

ـ سامر، حبيبي، سامر، أرجوك أريد أن أسمع صوتك، قل أنك سامحتني، قل أنك لن تتركني

كنت كفتاة صغيرة فقدت يد والدها في حشر من الناس وأضاعته، وسكنتها الرهبة من يتم جديد، فراحت تصرخ علّ صوتها يعيد والدها للمكان الذي تركها فيه، هكذا كنت أنا أحاول أن أعيده إليّ لأني رأيت يتم قلبي بعده.

سمعت صوته بعدها أخيرا بنبرة جافة:

ـ غيداء، إذا كنت لا تثقين بي، فمن الأفضل أن ننهي الآن ما بيننا قبل أن نتورط أكثر

شهقت وأنا أسمع كلماته التي كانت تذبحني ورحت أضيف في صوت راجٍ متهدجٍ:

ـ نتورط أكثر، لأننا لم نتورط بعد، أنا متورطة فيك منذ أول مرة رأيتك فيها، متورطة فيك حد الذوبان والانصهار، لا تفعلها بي سامر، لا تقتلني، لو تركتني سأموت، لا يمكنني العيش بدونك، أرجوك سامر لا تفعل ذلك بي

جاء صوته حادا قاسيا يملأه الغضب:

ـ لا يمكنني أن أعيش مع امرأة لا تثق بي، عدم ثقتك يا غيداء خذلتني، لم أنتظر هذا منك أنت بالذات.

أحسست مع كلماته عن الخذلان، بالعجز والذل، صغُرت نفسي في عينيّ وقد بِتّ أكَذِبُ ما سمعته أذناي، وألوم نفسي على تسرعي، ورحت

أستسمحه من جديد وأطلب غفرانه، أترجاه إلى أن رضي أخيرا وهو يقول:

ـ مستقبلنا معا متوقف عليك، يجب أن تثبتي أنك تثقين بي، وأنك تستحقين ثقتي، وإلا ستكون النهاية بيننا.

ـ سأثبت لك سامر، سأفعل كل ما تريده مني، وما ترغب به حتى دون أن تذكره، فقط لا تتركني، لا تذبح قلبي الذي تعلق بك.

استرضيته وتنازلت أكثر ووعدت بالرضوخ، وهكذا كانت العودة وقد أصبحت أسيرته أكثر مما كنت، بكامل إرادتي، لا أعيش إلا لإرضاء سامر وكسب ثقته، إثارة إعجابه، وتجنب غضبه، حتى لا يفكر مرة أخرى مجرد التفكير في التخلي عني.

شيماء

في عالمها كانت شيماء تطارد أحزانها وخيباتها المتأصلة فيها منذ بدء العمر، حتى لا تضعف لجأت أخيرا إلى الله بعد سنوات مراهقتها العصيبة، ويأسها، وقنوطها، وعرفت أخيرا طريقها إلى بعض الراحة التي كبرت مع تقدم سنواتها نحو الشباب، وخروجها من مرحلة المراهقة، رغم أن هذه الراحة كان يُنغصها استمرار والدتها في تحميلها ذنب رحيل والدها دون أن تخبرها بذلك علنا، ولكن كل غضبها، وشتائمها، وتحقيرها لها، كان يقول لها ذلك، كما كان ظلم الناس مستمرا في تحميلها ذنب شكلها، الذي لم يكن لها يوما دورا في اختياره، فكانت تغرق نفسها في كتبها العلمية والدينية، وأصبحت رغم سنواتها الخمس وعشرين خبيرة بعالم الإنترنت والإعلام الآلي، عاشقة للغات، ومتفقهة في دينها.

عندما سألتها يوما كيف هدأت روحك بعد كل ذلك الصخب الذي عشته؟ أجابتني بنبرة هادئة:

(كان لي أستاذ يدرِّسنا اللغة العربية في سنواته الأخيرة قبل التقاعد، رجل هادئ مسالم، له لحية بيضاء صغيرة تزيده وقارا وابتسامة خفيفة لا تفارق شفتيه، استدعاني مرة لمكتبه بعد أن لاحظ نزول معدلات درجاتي وصمتي عن المشاركة في الدرس منذ مدة، سألني ـ ما إن ولجت مكتبه ـ عن حالي، فأجبته أني بخير رغم أنني وقتها لم أكن بخير، كان اليأس والغضب قد اشتدا بي وكنت أفكر جديا في الانتحار لأتخلص من معاناتي، وأخلص الناس من بشاعتي، سألني بعدها:

ـ هل أنت راضية عن الله؟

تعجبت سؤاله الذي فاجأني وقلت له:

ـ وهل يملك العبد الضعيف أن يرضى أو لا يرضى على الله

فأجابني مبتسما ابتسامة خفيفة وقورة:

ـ نعم يملك، إذا رضي العبد بقدره فهو راضٍ عن ربه، إذا صبر على ابتلائه فهو راضٍ عمن خلقه، إذا حمد العبد ربه في الضراء كما في السراء فهو راضٍ عن الله.

أذهلتني يومها كلماته التي لم أسمعها قبل من غيره، وبدأت أستشعر أنها كانت رسالة مبطنة موجهة لي فاسترسل أستاذي مكملا حديثه:

ـ ألم تسمعي بقوله تعالى في كتابه الكريم (إنّ الّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ أولئك هُم خَيرُ البريِّة، جَزاؤهُم عِندَ رَبِهِم جَنّاتُ عَدنٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فيهَا أبَدا، رَّضِيَ الله عَنهُم ورَضُوا عنه، ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ) .

ولما لم يجد مني إجابة وأنا أنظر إليه عاجزة عن الرد، أردف قائلا:

ـ ألا تعرفين أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم قال (إنّ عِظمَ الجَزاءِ مع عِظمِ البَلاء، وإنّ الله إذا أحَبّ قَوما ابتلاهُم، فمن رضِيَ فَلَهُ الرِّضا، ومن سَخِطَ فله السّخَط).

رغم أنها لم تكن أول مرة أسمع تلك الآية ولا هذا الحديث إلا أنني يومها شعرت بالكلمات تنساب بداخلي فتحيي شيئا انطفأ فيَّ منذ زمن لم أعد أدرك حتى مدته، سمعت أستاذي يواصل بصوت حانٍ لم يكلمني به أحد قبله، وبنظرة متعاطفة لم أرَ فيها النفور ولا الاشمئزاز، وبسمة راضية

كبسـمة أب لم أعرفـه يومـا:

ـ بنيتـي، إن اللـه إذا ابتـلى عبـده وصـبر نـال الدرجـات العـلا مـن الجنـة، فـإذا رضي العبـد بابتـلاء ربـه لـه، فهـو راضٍ عـن ربـه، وإذا رضي، رضيَ اللـه عنـه، إن القـدر كائـن لا مغـير لـه، فمـن أراد الرضـا رضي، ومـن رضي نـال ثـواب الدنيـا والآخـرة، فهـل أنـت راضيـة عـن اللـه يـا بنيتـي؟

صمتـت لا أعـرف إجابـة لهـذا السـؤال، أو ربمـا أرفـض أن أفصـح أننـي غـير راضيـة عـن هـذا الإلـه الـذي خلقنـي بهـذه الصفـات البشـعة، التـي تنفـر عنـي كل مـن يـراني ويقابلنـي.

عندمـا رأى ذهـولي وصمتـي فاجأني من جديد كأنه يعـرف كل معاناتي وتخبطي:

ـ سينظر الله إلى تعبك وصبرك، وسيجبر قلبك.

مـرت الأيـام، وظـلَّ السـؤال يُلـح في رأسي (هـل أنـت راضيـة عـن اللـه؟) وكلـما هممـت بالإجابـة بينـي وبـين نفـسي اسـتثقلتها واسـتعظمتها، كيـف لا أرضى أن يحبنـي اللـه فيبتلينـي؟ أأنـا أرفـض عطيتـه العظمـى مقابـل جـمال زائـل لا يـدوم إلا سـنوات مـن العمـر ويذهـب مـع الشـيب والكـبر؟ كيـف لي أن أعيـش سـاخطة عـلى اختيـاره لي دونـا عـن الآخريـن؟ كيـف وصـل بيّ اليـأس إلى التفكـير في الانتحـار؟ نعـم الحمـل ثقيـل عـلى فتـاة لم تجـد شـيئا ولا أحـدا في هـذه الدنيـا تسـتند عليـه، لكـن أوليـس اللـه خـيرَ سـند؟ هـل سـأرتاح أو يتغـير شيء بسـخطي هـذا الـذي يأكلنـي ويتآكلنـي؟ أم أننـي سـأرتاح إن رضيـت وضربـت بقسـوة النـاس الحائـط، راجيـة رحمـة اللـه؟

ظلـت الأفـكار تتصـارع بداخـلي مـدة مـن الزمـن حتـى جـاء ذلـك اليـوم الـذي رأيـت فيـه أسـتاذي في الطريـق مـع زوجتـه يمـشي ومعـه أبنـاءه، توقـف

مسلما عليّ، عرفني على زوجته، كانت امرأة مبتسمة بشوشة احتضنتني كما لم يحتضنّي صدر دافئ قبلها ولا حتى بارد، كان يبدو جليا من تصرفاتها أنه قد حدثها عني سابقا، عرفني بعدها بأطفاله اثنان منهما مصابان بإعاقات جسدية يجرانهما على كرسيان متحركان، وواحد يبدو أنه مصاب ذهنيا، ورغم ذلك كان الرضا يطفو على وجوه تلك العائلة المتراصة التي كانت تبدو لي غريبة، لأني لم أعرف قبل ذلك اليوم ما معنى أن تمتلك عائلة، استحييت من الله كيف أسخط عليه لمجرد أنه ابتلاني في قسمات وجه لم يكن يعجب الناس، بينما حباني بعقل راجح وجسد سليم، بدأت أعد بعدها نعم الله عليّ، وأزنها بميزان العقل، واخترت يومها أن أجرب الرضا، جربته وعندما عرفته ارتاحت نفسي وهدأ صخب حزني وسخطي، فاخترت أن أرضى، وعندما رضيت استقر بيّ المقام في من لا يرجون إلا رضا الرحمان).

كانت هذه المحادثة وهذه الحادثة الصغيرة بينها وبين أستاذها منعرجا في حياتها، ورغم بشاعة وجهها الذي لم يكن لها دور في اختيار تقاسيمه، إلا أنها حرصت بعدها على أن ترسم روحها وتلونها بأجمل الألوان، فكانت صوامة قوامة، حامدة لله رغم لحظات ضعفها الإنسانية، مدركة أن الله ابتلاها دون سواها، وأنها قادرة على هذا الابتلاء، لم تكن تطلب الدنيا، وأصبح مبتغاها الجنة، طموحها لا يحده شيء، فكانت تطلب الفردوس الأعلى في صلواتها، وتناشد ربها أن (لن أرضى بأقل منها مكانة، فقد تعذبت كثيرا في الدنيا وأنا صابرة حامدة، وأرتجي الراحة هناك في أعلى درجات الجنان، وكان دعاؤها وتسبيحها: اللهم إني رضيت بك ربا

ورضيـت بقـدرك لي اختيـارا واختبـارا، فأرضنـي وارضى عنـي) هكـذا كانـت مناجاتهـا للـه خالقهـا وراحمهـا.

كانـت وحدهـا تعـرف كـم هـي جميلـة مـن الداخـل، لأن كل مـن حولهـا يرفضـون معرفتهـا، وحدهـا كانـت تؤمـن بـأن بيـاض روحهـا أجمـل مـن كل الوجـوه التـي ترفـض النظـر إليهـا، وترفـض التعـرف عليهـا، وحدهـا كانـت تـدرك خسـارتهم، ووحدهـا كانـت تـدرك أنهـا أصفـى مـن هـذه القلـوب التـي لا تـرى إلا القشـور، وترفـض أن تتـذوق قلـب الفاكهـة، وقـد وصلـت أخـيرا إلى الرضـا عـن نفسـها وتقبُـل شـكلها، كانـت هـي فاكهـة مـن فواكـه الجنـة، بطهرهـا وعفتهـا، نقـاء روحهـا وصفـاء قلبهـا، فبالرغـم مـن كل الأذى الـذي رماهـا بـه محيطهـا القـاسي ـ مجتمـع كان طيلـة الوقـت يحاسـبها عـلى شيء لا يـد لهـا فيـه، مجتمـع تهمـه المظاهـر الكاذبـة، ولا يتعـب نفسـه في البحـث عـن جوهـر الأمـور ـ رغـم كل هـذا، إلا أنهـا تعلمـت كيـف تعذرهـم وتجد لهم الأعـذار، وصلـت إلى مرحلـة كانـت تشـهد فيهـا ربهـا كل ليلـة أنهـا سـامحت كل مـن آذاهـا، أنهـا تغفـر ليغفـر اللـه لهـا، متذكـرة قولـه سـبحانه مـن قائـل (ألا تُحِبُّـونَ أن يَغفِـرَ اللـه لَكُـم) تلـك الآيـة التـي نزلـت في حادثـة الإفـك التـي اتهمـت فيهـا أمنـا عائشـة رضي اللـه عنهـا وأنـزل اللـه براءتهـا في قـرآن يتـلى إلى يـوم الديـن، وكان أبـو بكـر الصديـق قـد عـزم عـلى قطـع النفقـة عـلى مسـطح بـن أثاثـة وكان ممـن خاضـوا في حادثـة الإفـك، فلـما سـمع الآيـة قـال (بـلى واللـه إني أحـب أن يغفـر اللـه لي) وأعـاد إليـه النفقـة التـي كان يدفعهـا لـه، هـي لم تعـد حاقـدة عـلى والدتهـا، بـل أصبحـت تطلـب رضاهـا وتتحمـل كلماتهـا وتصرفاتهـا بابتسـامة واسـعة، ومـع تقـدم والدتهـا في السـن هـدأت

ثورتها بعض الشيء رغم أنها لم تختف كليا، لكن أمها اقتنعت أخيرا في قرارة نفسها أن العمر يمضي بها والصحة ستغادرها يوما، ولن تجد من يعيلها ويتحملها سوى ابنتها، فرضخت للأمر مكرهة باكية على نفسها وليس على ابنتها، رغم أن الأمر كان لا يخلو من الثورات التي تعاودها فجأة، فتعود تلك الأم القاسية التي لا ترتاح إلا بإهانة ابنتها وبإيلامها، وكانت شيماء تتجاوزها بالصمت والدعاء، لم تعد تكره والدها، بل غفرت له فعلته التي لم تفهمها يوما ولم تجد تفسيرا لها، ولطالما كانت تراودها فكرة أن والدها قد يكون هرب من لسان والدتها السليط وطبعها الحاد، وتعود لتتساءل وما ذنبها هي في كل هذا ؟ أيتخلى المرء عن فلذة كبده بانفصاله عن زوجته ؟ أيطاوعه قلبه في رمي ابنته وكأنها لم تكن يوما؟ ألا يراوده الحنين يوما لرؤيتها، لمعرفة مصيرها ورؤية شكلها؟ ثم تبتسم ابتسامة ساخرة وهي تخمن أن شكلها هو الشيء الوحيد الذي لن يرغب يوما في التعرف عليه، تعاودها الهواجس والأحلام، أتراه يطمئن عليها من بعيد بما أنها ووالدتها لم يغيرا مقر سكناهما أبدا؟ أيعرف أنها وبرغم كل شيء تحاول أن تكون بخير؟ الناس لا تتركها في سلام، نظراتهم، همزاتهم، لمزاتهم، وغمزاتهم، لكنها ترمي كل ذلك وراء ظهرها، وروحها تدفعها إلى الأمام برغم الصعاب والمطبات تنشد في صمت وفي ثقة مخاطبة قلبها الشجاع:

أتركهم يتحدثون

يا صديقي أتركهم يفعلون

امتطي جوادك وانطلق

دعهم خلفك يلهثون

طاردها أحلامك، لا تيأس

دعهم من ضعفك ييأسون

دعهم يقولون عنك ما يشاؤون

يستهزئون، دعهم يضحكون

سر أنت إلى الأمام

تقدم واتركهم يتفرجون

سيدركون أنك في مقدمة الركب

وأنهم هم الآخرون

ستصل يوما وسيعرفون

أنك بدلت ما في وسعك

بينما هم عليك يتطاولون

سيكون، صدقني سيكون

أتركهم في جهلهم يتخبطون

وامضي أنت إلى النور

ستحيا أنت وهم بعدك سيموتون

لم تعد الشيماء تكره نفسها، وعندما تنظر في المرآة لا ترى وجهها الذميم، بل ترى انعكاس جمال روحها، عرفت السلام عندما عرفت الله، ما عادت "الشيماء" في نظرها "الشمطاء" بل فقط تلك الفتاة الشجاعة التي تصر على الحياة برغم كل السهام الموجهة إليها.

ساعدها في ذلك أن فتح الله عليها بوظيفة في مدرسة تعليم خاصة بالبنات، لذوي الاحتياجات الخاصة بالصم البكم، بعد أن تعلمت لغتهم وحصلت على شهادة تخصص مكنتها من الحصول على الوظيفة، كانت تتعامل مع تلميذاتها بقلب أم يدرك حاجة أبنائها لكل جهدها ولتفهمها، ففي النهاية رفضُ المجتمع لهاته الفئة يشبه رفضه لها، فمن أقدر منها على فهمهن، لم تبخل عليهن بكل حبها وكل ما تعرفه، في نهاية السنة كان قسمها يحتل المرتبة الأولى على المستوى الوطني بتميز وتفرد طالباتها، وأصبح أولياء هؤلاء الأطفال يصرون ويتمنون أن تكون مُدَّرسة بناتهم، أصبح الجميع يرغب في التعرف على هذه المُدَّرِسة التي تعشقها بناتهم ، أطفال رأوها بقلوبهم الصافية فرأوا نقاء روحها، وجمال قلبها، فأصبحت تلقب بـ " ماما شيماء "، من دون كل المدرسين، كانت الوحيدة التي أطلق عليها التلاميذ بلغتهم لقب "ماما " كانت تبتسم كلما تذكرت أنها انتقلت من لقب شيماء إلى شمطاء ليستقر بها الأمر على " ماما شيماء " وما أجمل هذا اللقب، عندما تسمعه بكل ذلك الحب الذي تضج به الأصوات المكتومة لأبناء روحها.

حوراء

ها هي " حوراء " تلك التي ظنها يوما نوره، تجلس الآن أمامه داخل مكتبه، تنظر إليه نظرة غريبة ملؤها الشجن وظاهرها التحدي، ولأنه يعرفها جيدا فهو يرى روحها الهشة ترتسم على مقلتيها، رغم محاولتها خداعه بتلك النظرة التي ترسم تحديا، قد يصدقه غيره لشدة إتقانها رسمه، لكن هل عرفها حقا حتى يجزم اليوم ؟

انتظر " مروان " أن تبادر هي بالكلام، لقد ترجته أن يقبل مقابلتها وأقسمت له أنها ستكون آخر مرة، وسيكون هذا آخر طلب لها، رفض في البداية، لكنها ألحت حتى غلبه ذلك الشعور الخائن الذي مازال يسكنه، حنينه إليها هو ما غلبه وقهر مقاومته، والآن هو يريد أن يعرف أي كذبة ستكذبها هذه المرة، أم تراها جاءت تقر بذنبها وترتجي الغفران؟ كيف لقلب رجل أن يغفر خيانة امرأة؟ الرجل يخون والمرأة تغفر، أما العكس فلا، قد فعلها قبله من ورثاه القسوة والضياع ولن يعيدها هو اليوم، لن يسمح لنفسه بالوقوع في هذا الفخ.

طال صمتها وهي تنظر إليه، قابلها بتلك النظرة القاسية التي يجيدها أكثر من أي شيء آخر، رافضا أن يسهل الأمر عليها أو أن يسألها (لماذا فعلت ذلك؟ أو حتى ماذا تريدين؟) تركها تتخبط ما بين صمته وضياعها، إلى أن سمع صوتها أخيرا:

ـ هل انتهى ما بيننا؟

انفجر ضاحكا، ضحكة جلجلت في المكان واهتز لها قلبها فزعا وهلعا،

وهـو يفكـر أن هـذه المـرأة الغريبـة لـن تتوقـف عـن مفاجأتـه وإدهاشـه، ثـم رد بنـبرة مسـتهزئة:

ـ ومـاذا تظنـين أنـت؟ أننـي سـأنسى وسـنعود لبعضنـا، أنـسى أنـك لسـت أنـت، فالمـرأة التـي أحببتهـا لم تكـن تشـبه في شيء تلـك التـي رأيتهـا تلـك الليلـة.

أغمضـت عينيهـا تحـاول قتـل الصـورة التـي ارتسـمت أمـام ناظرهـا، تذكرهـا بتلـك الليلـة المشـؤومة فتحتهـما مـن جديـد وهـي تقـول:

ـ لكنـك لم تسـأل، لم تحـاول الاستفسـار ولا التأكـد، أخـذت الصـورة وبنيـت عليهـا مـا أردت تصديقـه منـذ التقينـا، صدقتـه واختفيـت.

أجابها وابتسامته الساخرة ترتسم على طرفيّ شفتيه:

ـ الصـورة كانـت أوضـح مـن أي كلام، لم تكـن تحتـاج لأي سـؤال لتأكيدهـا، مـاذا تريدينني أن أفهـم غـير تلـك الحقيقـة الجليـة التـي رأيتهـا بعينـيّ، أنـت امـرأة خائنـة مثلـك مثـل غـيرك مـن النسـاء، كل مـا كان قبـل تلـك الليلـة كان تمثيـلا، كان خدعـة، تلـك الليلـة كانـت الحقيقـة مجسـدة في امـرأة، وأنـت كنـت كل النسـاء متجسـدات في امـرأة.

أحسـت بـالألم يعتـصر قلبهـا وهـي تسـمع كلماتـه، لطالمـا حذرهـا الجميـع منـه، رجـل عـرف الكثـير مـن النسـاء، لكنـه لم يرتبـط بواحـدة منهـن، حطمتـه يومـا امـرأة بفعلتهـا الشـنيعة التـي شـاعت بـين النـاس، قتلـت روحه في جسـد رجـل آخـر، ففقـد الثقـة بعدهـا في كل النسـاء، كلهـن في نظـره كـنَّ خائنـات، كلهـن كـنَّ صـورة لهـا، إن كانـت هـي المفـروض بهـا ألا تخـون، خائنـة، فكيـف لامـرأة أخـرى أن تكـون وفيـة، في عرفـه لا امـرأة تجيـد الحـب في هـذا العـالم، والرجـل الـذي يقـع في خطيئـة الثقـة بامـرأة، رجـل أحمـق يسـتحق أن تخونـه

امرأتـه، لكنهـا قاومـت سـمعته تلـك، قاومـت قلبـه القـاسي، قاومـت ذلـك الاعتقـاد الـذي سـكنه حتـى أصبـح في عرفـه حقيقـة لا تقبـل التكذيـب أو الجـدال، أذابـت جليـد قسـوته، وحطمـت جـدران شـكه، حتـى جاءهـا مستسـلما معترفـا بأنهـا زعزعـت أكـبر حقيقـة في حياتـه وجعلتهـا مجـرد كذبـة، بـل وجعلـت حقيقـة أخـرى تسـكنه، أنـه كان محظوظـا لأن الأقـدار وضعـت في طريقـه امـرأة اسـتثنائية، امـرأة لا تشـبه أيـا مـن النسـاء، امـرأة لا تعـرف معنـى الغـدر ولا الخيانـة وليـس لهـما مـكان في عالمهـا.

حتـى جـاء ذلـك اليـوم لينقلـب كل شيء ويعـود هـو إلى حقيقتـه الأولى (كل النسـاء خائنـات بـلا اسـتثناء، كلهـن خلقـن مـن طينـة الخطيئـة).

ارتعد قلبها داخلها وهي تسمع جوابه بادرته وهي تسأله:

ـ من أخبرك أنني هناك؟

ـ وهل يهم ذلك؟

ردت محاولة التشبث بقوتها المصطنعة، حتى لا تضعف أمامه:

ـ أجـل يهـم جـدا، لأن مـن أخـبرك هـو مـن اتصـل بي وأخرجنـي مـن سريـري في جنـح الليـل، مدعيـا أنـك مصـاب بطلـق نـاري وغائـب عـن الوعـي

رد محاولا دحض حجتها الواهية:

ـ كيف تخرج امرأة محترمة من بيتها في جنح الليل؟

حاولت هي السيطرة على أعصابها وهي تجيبه:

ـ هذا الشيء الوحيد الذي يمكن أن ألام عليه

صمتت قليلا ثم استطردت مكملة:

ـ خرجـتُ متخفيـة دون علـم والـدتي، لأن الصدمـة أرعبتنـي والخـوف منعنـي

مـن التفكـير السـليم.

انشـقت شـفتيه عـن ابتسـامة، لم تكـن تشـبه ابتسـاماته السـابقة، التـي عرفتها في عهـد حبـه وجنونـه بهـا، بـل كانـت مريـرة هـذه المـرة:

ـ وهل تريدينني حقا أن أصدق ذلك؟

جاءهـا صوتـه القـاسي الـذي يغلـف خيبتـه فيهـا، لكـن لم تـرَ مـن هـذا الصـوت إلا رجـلا صلـدا، بـاع دون أن يكـترث لأنـه لم يتعلـق يومـا بمـا اشـتراه، فلـم يبـالي بمـا فقـد.

أجابت هي بمرارة تغلف روحها قبل صوتها وقد عجزت عن إخفاء ألمها:

ـ لـو أنـك سـألت سـاعتها لواجهتـه بكلامـي، لـو أنـك سـألت يومهـا، لعرفـت أننـي لم أبـق إلا بضـع دقائـق، بعدمـا اكتشـفت أنـك لسـت هنـاك ولم يصبـك مكـروه، لـو أنـك سـألت بعدهـا لعرفـت أننـي أثـرت فضيحـة بالداخـل، لأن صديقـك أو غريمـك كـما تسـميه أنـت، حـاول اسـتبقائي بعـد أن اكتشـفت كذبتـه، لـو أنـك اهتممـت لعرفـت أننـي أنـا المـرأة التـي عرفتهـا طيلـة تلـك المـدة، ولسـت امـرأة أخـرى، لـو أنـك أحببـت، لعرفـت وحـدك أننـي تلـك التـي لا تخـون، فقـط لـو أنـك أحببـت.

سـكتت قليـلا وقـد تهـدج صوتهـا وعـادت تلـك الغصـة التـي سـكنت حلقهـا وأسـكتتها ثلاثـة أشـهر، إنـه شـعورها القاتـل بالخـذلان هـو مـا أسـكتها كل تلـك الفـترة، لم تسـتطع مواجهتـه ولا لومـه، أو ربمـا لم تـرد ذلـك، لم تشـأ معاتبتـه، لأن خذلانهـا كان كبـيرا جـدا حتـى قـررت فقـط النسـيان، لكـن ذلـك النسـيان هـو مـن يسـتعصي عليهـا منـذ ثلاثـة أشـهر.

منـذ ثلاثـة أشـهر وهـي تحيـا وتمـوت، مـرة بذكرى حبـه ومـرة بذكـرى خذلانه،

وهـي تقـاوم وتحـاول بـدون جـدوى، أرادت أن تنقـذ نفسـها مـن رجل سـكنته حادثـة مفجعـة قتلـت روحـه، فأصبـح الغـدر عنـوان عالمـه، والخيانـة سـمة كل النسـاء دون اسـتثناء، هـي صدقـت أنـه شُـفي، صدقـت أنهـا كانـت دواءه وبلسـمه، لكـن فجيعتهـا كانـت عظيمـة وهـي تـراه يرميهـا في أول عـثرة شـك، لم يشـفع لهـا كل مـا فعلتـه مـن أجلـه لترجـع ثقتـه في الحيـاة وفي الحـب، لم تشـفع لهـا تضحياتهـا وعـاد هـو ذلـك الرجـل الغـارق في بحـر ماضيـه، يرفـض أن يخـرج، منـه حتـى وهـو يـرى قـارب النجـاة ويصـدق جازمـا أنـه سراب، لـذا حاولـت هـي النسـيان، حاولـت الخـروج مـن حياتـه بعـد الـذي حـدث، واعتـبرت تلـك فرصـة القـدر التـي يهبهـا لهـا، مـن أجـل النجـاة والنـأي بنفسـها عـن عالمـه المظلـم، لكـن قدرتهـا كانـت أضعـف مـن التمسـك بهـذه الفرصـة، كانـت أجـبن مـن عزمهـا اقتلاعـه مـن قلبهـا، وذلـك الوجـع الـذي سـكنها حتـى كاد يفتـك بهـا، كيـف فعـل بهـا هـذا؟ كيـف صـدق فيهـا هـذا؟ كيـف صـدق أنهـا امـرأة تخـون؟ وهـو الـذي يعلـم جيـدا أنهـا طيلـة سـنة كاملـة مـن علاقتهـما لم تمكنـه مـن قبلـة اشـتهاها مـن شـفتيها، لم تتركـه يلمـس شـبرا منهـا، قاومـت شـوقه إليهـا الـذي كان يسـكنه، وأخمـدت شـوقها هـي إليـه، كيـف تخـون وهـي لم تخـن نفسـها حتـى معـه هـو، كيـف صـدّق ذلـك؟ كيـف اسـتطاع أن يذبحهـا هكـذا بشـكه، وبإخراجهـا مـن حياتـه، بينـما هـي عاجـزة عـن اقتلاعـه مـن قلبهـا، عاجـزة عـن كرهـه، عاجـزة عـن مجـرد النسـيان.

أخرجـت علبـة صغـيرة مـن حقيبتهـا وهـو يراقبهـا، مـدت يدهـا تضعهـا عـلى المكتـب أمامـه وهـي تسـتطرد حديثهـا:

ـ هـذا خاتمـك، لم يعـد لوجـوده معـي معنـىً، وأظـن أنـه لم يعـد يعنـي مقصده

عنـدك عندمـا قدمته لي.

نظـر إلى العلبـة وتذكـر يـوم أهداهـا هـذا الخاتـم، رفضـت قبولـه كعادتهـا معـه، منـذ تعـرف عليهـا، أغـدق عليهـا بالهدايـا كعادتـه مـع مـن عـرف قبلهـا مـن النسـاء، لكنهـا كانـت مختلفـة، وحدهـا مـن بـين كل مـن عـرف مـن النسـاء، كانـت ترفـض هدايـاه، وحدهـا كانـت ترفـض الخـروج معـه في سـهراته وأماكنـه المشـبوهة كـما كانـت تسـميها، وحدهـا مـن رفضـت أن يلمسـها أو يطفـئ شـوقه إليهـا حتـى بقبلـة، وحدهـا مـن كانـت تواجهـه بعيوبـه، وبرفضهـا لـه، فقـد كانـت هـي أيضـا لا تثـق بالرجـال، وعلـم فيـما بعـد أنهـا عاشـت اليتـم رغـم أن والدهـا حـي ولكنهـا لا تعـرف مكانـه، ووجـد كل واحـد منهـما علاجـه لـدى الآخـر، لم تقبـل الخاتـم إلا بعـد أن أقنعهـا أنـه عربـون حبـه، وأعـرب عـن نيتـه في طلـب يدهـا مـن أهلهـا، قبلـت الخاتـم ولكنهـا رفضـت ارتـداءه إلا بعـد خطبتـه لهـا بشـكل رسـمي، لكـن بعدهـا بأسـابيع قليلـة كانـت صدمتـه الكـبرى فيهـا، لطالمـا أرقتـه هـذه الذكريـات مدافعـة عنهـا، لكنـه كان يؤكـد لنفسـه أنهـا مـا فعلـت ذلـك إلا لتوقعـه في شـباكها، لقـد أتقنـت اللعبـة حتـى صدقهـا هـو، اليـوم وهـو يسـمع دفاعهـا المبطـن في شـكل تسـاؤلات تعـود هـذه الذكريـات بقـوة، هـو فعـلا لم يسـأل، هـو فقـط صـدق مـا صدقـه دومـا قبلهـا، لكنـه يعـود ليؤكـد لنفسـه أنـه رآهـا بعينيـه ولا يحتـاج الأمـر للسـؤال.

عندمـا رأت شروده فسرتـه إحجامـا عـن الخـوض أكـثر في الموضـوع، كل شيء قـد انتهـى فعـلا، بجـرح في قلبهـا قـد لا يندمـل أبـدا، وسـيظل نزيفـه يذكرهـا بفقدهـا وفجيعتهـا، لكنـه فعـلا انتهـى.

وقفـت ترفـع رأسـها في شـموخ امـرأة، تعـرف يقينـا أن خصمهـا خـسر في هـذه المعركـة أكـثر بكثـير مـن خسـارتها، رغـم عظـم خسـارتها هـي، اسـتدارت وخرجـت مـن مكتبـه مغـادرة المـكان بنيـة مغـادرة حياتـه، هـا هـي ترجـع لـه عربـون مـا أسـماه يومـا (حبـه) كل مـا تريـده اليـوم أن يرجـع لهـا هـو عربـون حبهـا، أن يرجـع لهـا (قلبهـا) الـذي أهدتـه لـه يومـا، عندمـا ظنـت أنهـا وجـدت أخـيرا مرفئـا ومـرسى لقلبهـا، واكتشـفت أنهـا أخطئـت العنـوان والمـرسى.

كان هـو يراقـب انصرافهـا، بينـما شيء غريـب بداخلـه ينـذره أن أيامـه القادمة سـتكون أسـوأ بكثـير، مـن تلـك التـي عرفهـا طيلـة الأشـهر الثلاثـة السـابقة، بل سـتكون أسـوأ مـما عرفـه طيلـة أيـام عمـره، شيء مـا كان يقتلـع مـن داخلـه وينـصرف بانصرافهـا.

الفصل الثالث: انكشاف الوهم

الفاجعة، أن تتخلى الأشياء عنك لأنك لم تمتلك شجاعة التخلي عنها

أحلام مستغانمي (كاتبة وروائية جزائرية)

غيداء

في الأيام التي تلت خصامه ذاك، عاد سامر إليّ وقد أصبحت منصاعة أكثر من أي وقت مضى مستسلمة، خاضعة ، جعلني أترك أصدقائي، وأغير من أجله كل عاداتي، أصبحت أقضي أغلب وقتي في البيت، بانتظار اتصاله بي، ولم يكن هو يرد على أي اتصال مني، حتى يقرر هو التعطف عليّ ومهاتفتي، وكانت الدنيا حينها تشرق من حولي بمجرد رؤية اسمه على شاشة هاتفي، وسماع صوته، بينما كانت والدتي تخبرني بغضب تارة، وبشفقة تارة أخرى، وبنفاذ صبر تارة ثالثة، أن هذا الحب أضحى حبا مرضيا، وأن هذا الرجل يسجنني ويمنع عني الحياة، لكنني كنت راضية، وربما غافلة، فقد كنت أرى فيه وحده الحياة التي أريدها، دون أن أعرف لم وكيف. بعد مرور بضعة أشهر على خطبتنا تزوجنا، وقد رضخت عائلتي لرغبتي وإلحاحي، وهي ترى حالتي التي وصلت إليها في حبه، وحاجتي إليه.

وضعني سامر في بيت، أنا من اشتريته بمال والدتي، ومنع عني الخروج إلا برفقته، ورضيت بذلك، هائمة في حبه، معتقدة أن هذه غيرة، والغيرة فرط حب كنت أرجوه، عندما كان يأتيني ليلا كان يأخذني لعالم لم أعرفه إلا معه، وكنت أظن ذلك شوقا، وما الشوق إلا وجه آخر لعشق كنت أنشده منه، عندما كان يغضب ـ ولشَدَّ ما غضب ـ كنت أصالحه وأنا أقنع نفسي أنه يطلب اهتمامي، وما تفسير ذلك إلا خوف من فقد حبي، وما خوف الحبيب إلا عشق، كنت أظن أني أكثر من يعرفه وأن زواجي به صهر روحينا، لتصبح روحا واحدة تسكن جسدين.

فتح سامر بعدها مطعما بمالي الذي أخذته من والدتي لأبدأ مشروعي الخاص، غضبت أمي بعدها عندما علمت أن المشروع هو مشروع سامر، وكل شيء مسجل باسمه، اشتريت له سيارة من مال والدتي، وكل ذلك وأنا عاشقة، راضية بما يتكرم به عليّ من وقته الثمين، بعد أن أصبح صاحب مشروع يتطلب منه الكثير من الوقت، والعمل، والمتابعة، كما كان يقول عندما كنت أبثه شوقي وحاجتي إليه، فكان يتحجج دائما بحاجة المطعم إليه:

ـ أنت تعلمين أن المطعم لن ينجح وحده، يجب أن أكون حاضرا في كل شيء، أريده أن يصبح مجموعة مطاعم .

ـ لكننا لا نحتاج لمجموعة مطاعم، أنا أشتاق إليك وأريد أن أعيش معك حياتنا، لا أريد أن يضيع العمر، أنت في عالم وأنا في عالم آخر .

كنت أرد بنبرة مستجدية خانعة، ويرد هو بنبرة غاضبة:

ـ هكذا أنت تحاولين دائما التقليل من جهدي، لأنك اشتريت المطعم بمالك الخاص، تستكثرين عليّ أن أثبت لك ولعائلتك، أنني قادر على النجاح، حتى لو ساعدتني أنت في الانطلاق لكن جهدي من سيصل بي إلى القمة.

كنت أخاف منه عندما يغضب، أخاف أن يتخلى عني وقد كاد يفعلها ذات مرة، أن يتركني للإهمال يبتلعني وكان أكثر ما يقهرني ويسكتني حساسيته في موضوع المال:

ـ حبيبي أنا لم أقصد ذلك، أنا فقط أشتاق إليك

فيلين هو قليلا:

ـ هو وقت قصير وسأحقق حلمي، بعدها سنعيش العمر كما تريدين

يقولها محاولا تبديد نبرة الغضب من صوته، فابتسم وأنا أعرف ألا مفر لي من الرضوخ ككل مرة، لا أتجرأ على مخالفته الرأي أو مناقشته حتى.

اقترب هو مني وأخذ وجهي بين راحتيه مدركا أنني لا أرجو إلا التفاتة اهتمام منه، بينما أشعر أنا ككل مرة يقترب فيها مني بهذا الحنان، أنني امتلكت العالم.

ـ أحتاج لبعض السيولة، المطعم يمر بفترة صعبة، وأحتاج بعض المال لتجاوز الأزمة .

ـ كل ما تريد حبيبي، أنا كلي لك

أستسلم وأنا أعلم أن والدتي سترفض منحي المال في البداية، لكنها سترضخ ككل مرة، فكما كنت أنا غير قادرة على مقاومته، كانت والدتي غير قادرة على مقاومتي.

يأخذ ما يريد ثم يعود إلى عادته معي مذ تزوجت به.

بمرور الوقت، أصبح غيابه عن البيت يزداد أكثر وأكثر، وهو يبرره دائما بالعمل، وأصبح الشوق رفيق أيامي، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي جاءني فيه مخمورا، يتمايل من السُكْرِ، صدمت برؤيته هكذا، ورغم ذلك لم أجرؤ على قول شيء، فقد تعلمت الصمت في حضرته، وعدم الاعتراض على شيء، منذ تلك المرة التي هجرني فيها سبعة أيام كدت أفقد عقلي فيها، ولأني كنت أدرك أنه قادر على إعادتها.

مالَ جسده حتى كاد يسقط، فأسرعت أسنده، لكنه نفض يديّ عنه، وهو ينظر إليّ بعينين محمرتين من أثر الخمر، وغاضبتين لأسباب لم أدركها إلا لاحقا وهو يصرخ بوجهي:

ـ ابتعدي عني، لا تلمسيني

أجبت في خفوت وقد ارتعبت من نظرته ومن نبرته:

ـ أريد أن أساعدك للوصول إلى سريرك

رفع يده ملوحا بها اتجاهي وهو يقول بنبرة متقززة وتعابير وجهه تشتد حنقا:

ـ لا أريد مساعدتك، ألم تملي من فرض نفسك عليّ، لا تلمسيني، أنا أقرف منك، هل تسمعين، أقرف منك، أنظري إلى نفسك، أنا أغمض عينيّ كلما لمستك، أتخيل نفسي مع امرأة أخرى، حتى أتحمل وجودك بقربي، أضطر لإطفاء النور كلما اقتربت منك حتى لا أرى وجهك..

وقفت مشدوهة أحاول استيعاب كلماته القاتلة، أمني نفسي بأنه سكران ولا يعي ما يقوله، لكنه أضاف ليقتل بداخلي أية محاولة للهرب من الحقيقة التي كان يلقيها في وجهي:

ـ لقد تزوجت بك فقط لأحصل على أموالك، أنت امرأة بلا ملامح، بدون شخصية، مدللة غبية، تتعلق بي كعلقة مقرفة، وأنا أتحملك فقط من أجل مالك اللعين.

ترنح جسده وهو يقترب مني ثم وقف مكانه مردفا:

ـ لماذا علقة مثلك تمتلك كل هذا المال، و... ورجل مثلي لا يملك شيئا؟ لماذا غبية مثلك لا تدري حتى ما تفعله بهذا المال تت...

صمت وقد انقطع حبل كلماته، بينما انقطع حبل أنفاسي، كنت أنا أموت وأنا أنظر إليه غير مصدقة أن عمري معه كان خدعة، وحبي له كان هباءً منثورا، أن زواجي به كان كذبة، لا أعلم من أين استوحيت

يومها القوة لأبقى واقفة على قدميّ المرتجفتين، بل كيف قاوم جسدي الانهيار أمامه، استدار هو ودخل الغرفة، بمشية متمايلة ليسقط على السرير، ويسقط معه قلبي وصمودي، فانهرت على الأرض، أضم جسدي المرتعش، باكية حياتي معه التي انتهت ساعتها.

بكيت الليلة بأكملها، بكيت وجعي، خيبتي، وخذلاني، بكيت أنوثتي التي داس عليها بقدميه وأنا راضية، بكيت حبي الذي ظننته كافيا لمنحنا السعادة معا، بكيت كرامتي التي نسيتها منذ عرفته، واستيقظَتْ تلك الليلة على قساوة كلماته، وحقيقة السراب الذي كنت أعيشه معه، بكيت دلالي الذي أوصل عائلتي إلى الاستسلام لرغبتي في الزواج به، بكيت أبا لم يكن موجودا ليقف ضد رغباتي العبثية أو حتى ليقف له اليوم، بعد اكتشافي لحقيقة الرجل الذي استغلني بأبشع صورة، بكيت ضعفي وانكسار جناحيّ منذ تركنا والدي وأنا مجرد رضيعة، بكيت عمري الموجوع منذ أدركت أنني أعيش بلا أب، وأنني سأعيش دوما دون أن أعرف حب والدٍ يحتويني ويوجهني، بكيت رغبتي التي خذلها سامر بأن يكون هو والدي، بكيت ظلمة حياتي معه، بكيت هواني على نفسي الذي رماني بين يديه وأوصلني إلى هذا الذل، لكن ولمفاجأتي الكبيرة، قبل أن ينقشع ظلام تلك الليلة، كانت ظلمة حياتي معه تنقشع، ليتجلى النور داخل روحي المتألمة، وأنا أدرك يقينا أنها نهاية زواجي به، ونهاية الكذبة التي اختلقتها وصدقتها، بأنني عاشقة لرجل رائع يبادلني نفس الحب ونفس الوله، أدركت أنه لم يكن رائعا، وأن شعوري به لم يكن عشقا، بل كان مرضا، كان ضعفا، كان احتياجا، وعليّ أن أتغلب على كل هذا،

لأعـود أنـا أقـوى مـما كنـت، وأجمـل مـما ظننـي هـو، لأننـي ذات يـوم ورغـم ضعفـي كنـت جميلـة بحبـي للحيـاة، وحبـي لنفـسي التـي قتلهـا هـو، لكننـي عزمـت وقـررت (سـأعود أجمـل، سـأعود أقـوى).

في الصبـاح اسـتيقظ وهـو لا يتذكـر شـيئا مـما قالـه البارحـة، وقـد صمتـت أنـا عـن البـوح بمـا كان، وقـد قضيـت الليلـة أبـكي مـا كان وأفكـر في مـا سـيكون.

في الأيـام التـي تلـت تلـك الليلـة التـي عرفَـت ضياعـي أو ربمـا خـلاصي، حرصت ألا أظهـر لـه شـيئا وألا أجعلـه يـدرك تغـيري مـن ناحيتـه، كان الأمـر صعبـا جـدا، أن أخفـي انكسـار روحـي أمـام الشـخص الـذي تسـبب في ذلـك، كان يتوجـب قـدرة هائلـة عـلى الصـبر، وإرادة أكـبر، لكـن كـثرة غيابـه عـن المنـزل، خاصـة في سـاعات النهـار، كانـت تسـاعدني عـلى ذلـك، وتتكفـل ظلمـة الليـل بحجـب انكسـاري عنـه ليـلا، لـن أكـذب عليكـم وأقـول أننـي شـفيت منـه في نفـس الليلـة، كنـت تائهـة لا أسـتطيع تحديـد شـعوري ناحيتـه، مزيـج مـن الغضـب والكـره، وخـوف مـن كيـف أكـون مـن دونـه، حنـين لحـب تمنيـت أن أجـده عنـده، ضيـاع كنـت أسـبح فيـه ووجـع كان يقتلنـي، لقـد كنـت امـرأة مجروحـة، ذبحهـا الرجـل الـذي أعطتـه كل مـا تملـك، ولم تبخـل عليـه حتـى بحريتهـا وحبهـا، بينـما ذبحهـا هـو مـن الوريـد الى الوريـد، كنـت أنـزف خذلانا ووجعـا، وكنـت أتخبـط مـا بـين حبـي لـه، أو ربمـا حاجتـي إليـه التـي كنـت أظنهـا حبـا رغـم مـا سـمعته منـه، وبـين رغبتـي في قتلـه بيـديّ حتـى أنتـصر لكرامتـي المهـدورة تحـت قدميـه مـذ عرفتـه.

كنـت أجلـس في غيابـه، أسـتعيد حيـاتي معـه وأدرك أننـي جنيـت عـلى نفـسي

بـأن قدمـت لـه كل شيء ولم أطالبـه في المقابـل بـأي شيء، جعلـت نفـسي رخيصـة الثمـن فلـم أسـاوي في ميزانـه مثقـال ود ولا شـعرة محبـة، كنـت أحـاول أن أعـود لتصرفـاتي معـه، وأحـاول أن أفهـم أيـن ذهبـت "غيـداء " التـي كانـت قبلـه، تلـك الفتـاة المنطلقـة المرحـة التـي تعشـق الحيـاة، تلـك التـي رفضـت كل خطابهـا عـلى كثرتهـم، لمَ رضخـت لهـذا الرجـل بالـذات، ولم رضيـت بهـذا الـذل كلـه، كنـت أفكـر وأفكـر وأسـتعيد علاقتـي بـه، كيـف علقنـي بـه لأنـه كان أول شيء يسـتعصي عـليّ في حيـاتي، كيـف كان يجعلنـي أحـس بتهديد هجـره لي في كل لحظـة، وتسـاءلت في نفـسي أتـراه تأثـير هجـر والـدي لنـا أنـا ووالـدتي وعمـري لا يتعـدى السـنتين، أتـراه الخـوف مـن أن يفعلهـا هـو أيضـا ويهجـرني، حتـى برمجـت نفـسي عـلى أن أكـون امـرأة لا تقـول لا أبـدا، ولا تعـترض أبـدا، لا تناقـش أبـدا ولا تطالـب بـشيء مطلقـا، نظـرت إلى نفـسي وأنـا أسـألني كيـف هُنـتُ عـليَّ؟ كيـف قبلـت بـكل هـذا الـذل؟ كنـت تائهـة ولكننـي عـلى الأقـل كنـت قـد وصلـت إلى قـرار حتمـي، لـن أكمـل حيـاتي معـه، لـن أرضى بعـدُ بهـذا الـذل، يكفـي مـا ارتضيتـه لنفـسي مـن هـوان إلى الآن، وقـد حـان الوقـت لأنتفـض وأقـف مـن جديـد، وحـدي وبدونـه، بـدون هـذا الرجـل الـذي ألبسـني ثـوب الـذل وقـد ألبسـته ثـوب الملـوك.

كنـت أشـعر وكأن ريحـا قويـة تنسـف باتجاهـي محاولـة إطفـائي كنـار مرتجفـة في يـوم عاصـف، لكننـي أقـاوم بالقليـل مـن القـوة التـي بقيـت لي، أقـاوم الريـح والأعاصـير أحـاول لأننـي لا أريـد أن أنطفـئ، وفي خمـود لهبـي يكـون مـوتي، وأنـا لا أريـد أن أمـوت.

أدركـت أننـي لم أكـن وفيـة لنفـسي فـلا عجـب أنـه خـان، أننـي يجـب أن أكـون أول صديقـة لروحـي سـألملم خيبـاتي في مـن منحتـه يومـا مسـاحة في قلبـي، وأتعلـم ألا أصـدق الكلـمات المنمقـة، فليـس كل مـن قـال صـدق وليس كل مـن ادعـى الحـب اؤتمـن، الأيـام قـد تؤكـد ادعـاءه وقـد تكذبـه، وقـد كذبـت أيامـي ادعـاء مـن قـال أنـه يحبنـي، سـأتعلم الحفـاظ عـلى قلبـي مـن الخـذلان، وأمسـك لجـام مشـاعري حتـى لا يؤذينـي الغيـاب، سـيكون غيابـه موجعـا لأننـي يومـا آمنـت بـه، وسـلمت بحضـوره بـين القلـب والوجـدان، لكننـي لـن أغـرق في الخيبـة والخـذلان، وسـأنتفض كـما تنتفـض العنقـاء مـن رحـم النـيران ومـن تحـت الرمـاد، وكـما يعـود طائـر الفينيـق أجمـل وأقـوى سـأعود أنـا كذلـك.

شيماء

بعدما وصلت شيماء أخيرا إلى الطمأنينة التي كانت تنشدها، انقلبت أمورها رأسا على عقب، تغيرت مديرة المدرسة ليحل محلها مدير جديد، كان منظره محترما جدا، صارما جدا، ويرفض التساهل في أي شيء فألقى الهيبة في قلوب المدرسين والعاملين بالمدرسة، بل وحتى الطالبات، الكل أضحى يحترم المدير الجديد إلا هي، كانت تخشاه، لكنها لم تكن تحترمه، ربما لأنها الوحيدة التي عرفت حقيقته جسد مغطى بأغلى الثياب، ووجه وسيم يدعي الحزم والجدية، زوجة مثالية يباهي بها الناس، عائلة تبدو متماسكة أو ربما كانت كذلك لأنه يخفي حقيقته بطريقة بارعة، لكنها هي تعرف أن كل ذلك كان غطاءً يخفي خلفه وحشا آدميا، شيطان في جسد رجل.

هي اكتشفت حقيقته منذ استدعاها أول مرة لمكتبه ليجلس أمامها، بدل أن يجلس قبالتها كما المفروض، وبدأ يتلمس يدها وهو يحدثها وكأن الأمر عادي في طريقة حديثه مع موظفيه، كانت هي تسحب يدها محرجة، غير قادرة على قول شيء، وهي تظن أنه لا يقصد شيئا سيئا، إنما ذلك طبعه في التعامل مع الناس، لكنها راقبته بعد ذلك في حديثه مع باقي المعلمات، ولم تجد منه هذا التصرف، أدركت أنه كان يقصد ما يفعله ولم تفهم لمَ يفعله؟ حتى تطور الأمر إلى ذلك اليوم الذي وقف قبالتها، وهي تهم بمغادرة المكتب، ليمرر بطريقة تبدو عرضية وغير مقصودة، يده على جانب صدرها، وتصدم هي بتصرفه، لكنها لم تكن

غبيـة حتـى لا تـدرك أنهـا كانـت مقصـودة وبنيـة مبيتـة.

في المـرة الثالثـة التـي حـاول الاقـتراب منهـا، هددتـه إن هـو فعـل أن تثـير فضيحـة في المدرسـة، ضحـك مـلء شـدقيه وهـو يخبرهـا أنهـا مجنونـة ومعقـدة، بـل ومتفائلـة جـدا، كي تظـن أن مثلـه يرغـب بلمـس مثلهـا، وأن لا أحـد سـيصدق تخاريفهـا، وكيـف لأحـد أن يصـدق أن رجـلا في مركـزه ووسـامته، يملـك زوجـة مثاليـة، قـد يتـصرف كذلـك معهـا هـي، امـرأة ببشـاعة لا توصـف، فلـماذا قـد يرغـب رجـل مثلـه بهـا، خرجـت مـن مكتبـه يومهـا وهـي تـكاد تنفجـر غضبـا.

عندمـا كانـت في غرفتهـا تسـتعيد مـا حـدث، أدركـت أنـه محـق، لا أحـد سـيصدق كلامهـا، مجتمـع تعـود عـلى الحكـم عـلى النـاس مـن مظهرهـم، لـن يصـدق فيـه أحـد، أن الرجـل الوسـيم المحـترم يتحـرش بالمـرأة الشـمطاء المنبـوذة، بـل سـيصدقون أنهـا مجنونـة تتخيـل ذلـك، أو أنهـا معقـدة تتمنـى ذلـك، لا أحـد سـيحاول حتـى التحقـق مـن الأمـر، لـذا كتمـت الأمـر مـع عزمهـا عـلى تجنـب هـذا المديـر قـدر الإمـكان.

تربيـة شـيماء المنغلقـة والمعقدة لم تمنحهـا الفرصة لصقل شـخصية تواجه الناس بقـوة، كانـت امـرأة مـترددة لأن تجربتهـا في الاحتـكاك مـع جنـس البـشر قليلة، بغـض النظـر عـن بنـات قلبهـا، طالباتهـا، لكنهـن كـن مختلفـات، كـن بريئـات لا يعكـر صفـو روحهـن غـرور الراشـدين مـن النـاس الذيـن قابلتهـم شـيماء في حياتهـا المضطربـة التـي لم تعـرف الاتـزان إلا بالبعـد عنهـم والتعلـق باللـه.

في الأيـام التـي تلـت، تركهـا مديرهـا مـدة مـن الزمـن، ثـم عـاد يسـتدعيها في

مكتبـه، كانـت ترفـض الذهـاب إلى مكتبـه، لكنـه هددهـا أنـه سـيطردها مـن العمـل، بدافـع قـوي يشـهد عليـه زملاؤهـا "عـدم تنفيـذ أوامـر مرؤوسـها "

كانـت شـيماء في ورطـة حقيقيـة لا تعلـم مـا تفعلـه، هـل تـترك العمـل؟ أم تسـمح لـه بطردهـا؟ ومـاذا سـتفعل، أتعـود للبقـاء في البيـت؟ تقابـل والدتهـا أربـع وعـشرون سـاعة، تسـمع كلماتها وتجريحهـا، والدتهـا التي مازالـت تنتظر عـودة زوجهـا الهـارب منهـا، منـذ سـنوات طويلـة، وتنتقـم مـن فعلتـه، فيهـا هـي ابنتـه بانفجـارات غضـب متكـررة، مـاذا تفعـل وهـي تعـرف أنها لـن تجد وظيفـة أخـرى؟ ولم تحصـل عـلى هـذه إلا بمعجـزة بعـد سـنوات مـن البطالـة. كانـت تتخبـط في حيرتهـا، بينـما هـو يراقبهـا مـن بعيـد ويعـي ويـدرك حالـة تخبطهـا، يراقـب جسـمها الجميـل الـذي حباهـا اللـه بـه، رغـم بشـاعة وجههـا بطولهـا الفـارع وانحناءاتهـا المتميـزة، خصرهـا المنقـوش بشـكل بديـع، هـو يريدهـا وسـينالها، طـال الأمـر أو قـصر، كان قـد قـرر أن يـترك لهـا الوقـت وهـو يـدرك تمـام الإدراك أنهـا سـتأتي إليـه بقدميهـا، فمـن خلقـت بظروفهـا الصعبـة وبشـاعة وجههـا، لا تملـك خيـارات كثـيرة في الحيـاة، وهـو يملـك الآن زمـام أمرهـا ومصـدر رزقهـا، هـو أدرك منـذ رآهـا أنهـا سـتكون ضحيـة سـهلة، فهـو يعـرف كيـف يلتقـط نقطـة ضعـف امـرأة تقـف أمامـه، ويعـرف جيـدا كيـف يسـتغلها، ولم يسـبق لـه أن كشـف أمـره، لأنـه لا يخاطـر باللعـب مـع مـن تملـك الخيـار، كانـت ضحايـاه كلهـن ضعيفـات، لا تسـتطيع الواحـدة منهـن رفـع صوتهـا.

مـرَّ عليهـا في الـرواق، الـذي كان فارغـا إلا منهـما، وقـد تأكـد هـو مـن ذلـك قبـل أن يصـل إليهـا، مـرر يـده عـلى انحنـاءة خصرهـا مـن الجانـب، وهـو

يرسـم عـلى ثغـره ابتسـامته المسـتفزة القـذرة، التصقـت بالجـدار محاولـة تجنبـه وأسرعـت الخطـى هاربـة منـه، بينـما سـمعت ضحكتـه الصاخبـة مـن وراء ظهرهـا، ضحكـة شـيطان منتـشٍ بقوتـه، مزهـوٌ بضعـف غريمـه.

في غرفتهـا، في المسـاء، كانـت تصـلي وهـي تبـكي، تطلـب مـن اللـه أن يريهـا الطريـق، هـي كانـت قـادرة طـوال عمرهـا عـلى تحمـل ابتلاءاتهـا الكثـيرة، ولم تتذمـر يومـا، لكـن لمَ يبتليهـا اللـه بهـذا الابتـلاء الجديـد؟ أليـس هنـاك غيرهـا ليلقـي اللـه عليـه بهـذا البـلاء الجديـد؟ عـادت واسـتغفرت ربهـا وقـد أدركـت أن القنـوط بـدأ يصيبهـا، تذكـرت سـنوات مراهقتهـا الصعبـة، عندمـا كانـت تتمنـى الهـروب إلى عـالم آخـر، عـن اختيـار المـوت كطريـق سـهل، لكنهـا لم تعـد تلـك الفتـاة المراهقـة الضعيفـة، هـي اليـوم امـرأة قويـة بثقتهـا باللـه، وسـتنتصر عـلى هـذا الابتـلاء.

عزمـت أخـيرا في قـرارة نفسـها عـلى أنهـا سـتقدم اسـتقالتها في الغـد، الـرزق بيـد اللـه و (الحـرة تجـوع ولا تـأكل بثدييهـا) كـما يقـول المثـل، وقـد كانـت هـي حـرة برغـم كل القيـود التـي تكبلهـا، حـرة القلـب، أبيـة النفـس، لا يعرف الـذل طريقـا لعـزة روحهـا، وفي النهايـة عـذاب وجودهـا مـع والدتهـا طيلـة الوقـت، وتحمـل شـتائمها وتذمرهـا، أهـون مـن عـذاب السـماح لهـذا الرجـل أن ينتهـك حرمـة جسـدها وروحهـا، واللـه لـن يضيعهـا، لقـد تقـرر الأمـر غـدا سـتقدم اسـتقالتها.

عندمـا أنهـت حصتهـا في المسـاء، توجهـت إلى مكتـب مديرهـا وهـي تحمـل ورقـة اسـتقالتها، عازمـة عـلى إنهـاء الأمـر والخـروج نهائيـا مـن هـذا الجحيـم،

وقفت أمام الباب تستجمع قواها قبل أن تطرقه، لكن يدها توقفت معلقة في الهواء عندما سمعت همهمات من داخل المكتب، وصوت أنفاس رجل، كأنه كلب يلهث، رجل حقير لم يكن يبدو سوى هو، مديرها القذر، صدمتها الأولى ألجمتها وأوقفتها مكانها، لتفاجأ بعد لحظات بالباب يفتح، لتخرج منه إحدى التلميذات التي لم تكن تتجاوز الثانية عشر من عمرها على ما يبدو، مسرعة تشد يديها على صدرها، ويكاد وجهها ينفجر من شدة الاحمرار، بينما تتعثر في مشيتها، وهي تحاول بشكل غريب ضم رجليها في حركتها، بقيت شيماء تنظر إلى الطفلة التي كانت تحاول إسراع الخطى، بينما هي تحاول استيعاب ما فهمته من هذا الموقف، ثم تحولت بنظرها إلى القذر، لترى تلك الابتسامة المستفزة على وجهه وتتأكد مما وصل إلى عقلها (الحيوان كان يتحرش أيضا بفتيات المدرسة، فتيات ذوات احتياجات خاصة، لا تستطيع الواحدة فيهن رفع صوت اعتراضها بالصراخ، القذر كان يستغل بنات قلبها) فتحت فمها دهشة وهي تصل إلى هذه الحقيقة، بينما جاءها صوته المتحشرج الذي لم يستعد بعد نغمة الإنسانية التي يتصنعها عادة، مع نفس الابتسامة، وهو يمسح حبات العرق المتدحرجة على جبينه:

ـ هل جئت تسلمين الراية أم أنك اشتقت إليّ؟

بقيت على صمتها وفغرة فمها، تثبطها الصدمة بينما عقلها يغلي غضبا، وروحها تصرخ حزنا على بنات قلبها، فجأة لم يعد همها ما يحاول فعله بها هي، بل ما يفعله فعلا بفتيات المدرسة، لا بد أن التي خرجت من مكتبه منذ لحظات لم تكن الوحيدة، أيعقل أنه كان يفعل هذا بفتيات أخريات

مـن المدرسـة؟ صرخ داخلهـا بصـوت مكتـوم (يـا إلهـي الحيـوان، كان يسـتغل مركـزه بأقـذر صورة ممكنة ليشـبع شـهوته الحيوانيـة وقد تجرد من الإنسـانية) تلبسـتها قـوة غريبـة وهـي تتجـه إليـه كالثـور الهائـج، لتضربـه بقبضتـيّ يديهـا عـلى صـدره، فيتراجـع إلى الـوراء مـن قـوة الضربـة وعـدم توقعـه ردة فعلهـا تلـك، مصدومـا ينظـر إلى هـذا الوجـه الغاضـب المخيـف، ويسـمعها وهـي تـصرخ بوجهـه:

ـ حيـوان، قـذر، كيـف اسـتطعت أن تدنـس هـذه الـبراءة؟ كيـف اسـتطعت؟ كيـف طاوعتـك نفسـك؟ أنـت قـذر بـل أنـت القـذارة بعينهـا، جبـان، حيـوان.

بينـما كان هـو واقفـا ينظـر إليهـا بابتسـامة قـذرة وهـو يسـتعيد رباطـة جأشـه ويجيبهـا:

ـ مازلت مجنونة ترين كوابيسك حتى وأنت مستيقظة

انسـحبت وهـي في قمـة غضبهـا وعجزهـا لا تعـرف مـا يجـدر بهـا فعلـه، خرجـت مـن المدرسـة راكضـة متجهـة إلى بيتهـا، وصلـت إلى البيـت محطمـة، مهـزوزة، منهـارة، أغلقـت بـاب غرفتهـا عليهـا وانفجـرت بالبـكاء وجسـدها يرتعـش، وهـي تتسـاءل لمـاذا تنتهـك الـبراءة هكـذا؟ لمـاذا خلـق اللـه حيوانات في صـورة إنـس؟ أجسـاد يسـكنها شـياطين، تنصـاع وراء غريزتهـا الحيوانيـة، متجاهلـة أن اللـه كرمهـا بالعقـل، أيـة رجولـة هـذه التـي تقبـل عـلى نفسـها هـذا الـذل وهـذه القـذارة، أيـن أوليـاء هاتـه الطالبـات؟ أيعقـل أن الإهـمال جعلهـم لا يلاحظـون معانـاة بناتهـم؟ أم هـي الحيـاة التـي يركضـون فيهـا لتوفـير لقمـة العيـش مـا جعلهـم غافلـين عـما يحـدث معهـن؟ ألا تحـدث الأم ابنتهـا وتعـرف تفاصيـل يومهـا؟ ألا يلاحـظ الأب حـزن ابنتـه وتغيرهـا؟ أيعقـل

أن يتوه الأولياء عن أبنائهم ليتركوهم عرضة لوحوش بشرية؟ وما الذي ستفعله هي الآن؟ تقديم استقالتها لن يكفي، ستنجو بحالها، لكنها لن تغفر لنفسها أنها انسحبت وتركت تلك البراءة بين يدي ذلك الشيطان، لا يمكنها الانسحاب الآن وقد عرفت بكل هذه القذارة، التي لطخ بها هذا المدير مكانا يعتبر من أقدس الأماكن، كما لا يمكنها فعل شيء، من سيصدقها إذا أثارت فضيحة؟ وهل يمكن للفتيات البريئات بصوتهن المكتوم الأبكم، أن تؤكد إحداهن ما ستقوله هي؟ لماذا يضعها الله في هذا الموقف؟ ألا يكفيها ظلام حياتها، حتى تكون شاهدة على ظلام حياة غيرها، بل وتسكت عليه، وكيف سيطاوعها قلبها على السكوت؟ تساؤلات تركض داخل عقلها تصطدم بفراغ الأجوبة النابع من انعدام التجربة، ضياع، خوف، قلق وغضب ينهش روحها، عجز يوجعها ويؤرق نفسها. اتجهت أخيرا إلى الصلاة، ملاذ روحها منذ الأزل وطمأنينتها، وراحت تناجي ربها أن يلهمها الصواب، يبدو الأمر مستحيلا، كيف ستجد حلا لهذه الأزمة بضعفها وقلة حيلتها؟ الأسئلة تتصارع داخل عقلها والأجوبة غائبة تأبى الحضور، لكن ثقتها بالله هي الشيء الحاضر الذي لا يغيب، الله قادر على كل شيء، وهي تعلم يقينا الآن أن الله لم يضعها في هذا الموقف عبثا، لا بد أن تنتهي الظلمة بنور، والله كفيل وقادر بجعل الظلمة تنقشع أوليس هو (نور السَّماوات والأرض) وقادر أن يلقي بعض نوره في طريقها المظلم.

كانت شيماء تناشد روحها وتخاطبها في صمتها مشجعة وهي تسترجع إيمانها:

(قـل للـذي دهسـه الحـزن في طريقـه، إن الوقـوف ليـس سـهلا ولكنـه ليـس مسـتحيلا، قـاوم وقـف، لا يحتـاج الأمـر إلا لكلمـة واحـدة وشيء واحـد قـل (يـا رب) وثـق أنـه سيسـتجيب ويمـد لـك يـده، لا تتكاسـل عـن مـد يـدك ولا تضيـع الفرصـة بالشـك في أنـك لـن تسـتطيع إكـمال المشـوار، سـتصل بالكثـير مـن الجهـد، سـتفعل لكـن إيـاك والاستسـلام فمـن قـال لا أسـتطيع طعَّـم عقله بمخـدرات العجـز، فكانـت رسـائل عقلـه أنـك لـن تفعـل وأنـك لـن تقـدر، ومن قـال إني بـإذن اللـه لهـا وقـادر عليهـا، كان اتكالـه عـلى مـن لا يـرد مسـتنجدا، وكان نجاحـه مؤكـدا فقـط قـل يـا رب واجتهـد).

حوراء

عـادت بـه الذكـرى إلى أول مـرة رأى فيهـا "حـوراء" عندمـا بـدأت أول يـوم عمـل لهـا في الشركـة التـي يعمـل بهـا مهندسـا، بينـما اسـتلمت هـي وظيفـة إداريـة، كان يدخـل الشركـة مسـتعجلا، عندمـا اسـتوقفته لتسـأله عـن مكتـب العلاقـات العامـة، لم يلفتـه سـاعتها إلا نعومـة صوتهـا، مـع حـدة مفتعلـة تبعـد عـن هـذا الصـوت الناعـم صفـة الميوعـة، يبـدو أنهـا كانـت مدركـة لهذه النغمـة المميـزة التـي يحملهـا صوتهـا، التفـت إليهـا يطالـع وجههـا، ليجـد وجه طفوليـا لامـرأة ناصعـة البيـاض، بعينـين بياضهـما يـكاد يـضيء، وسـوادهما شـديد السـواد، فـم صغـير بشـفتين مكتنزتـين ورديتـين، دون أيـة مسـاحيق تجميـل عـلى وجههـا، كانـت جميلـة بشـكل غريـب عـلى مـرأى عينيـه، اللتـان اعتادتـا جـمالا أكـثر صخبـا بمسـاحيق تظهـر تفاصيلـه، وقـد كانـت هـي تغطي رأسـها بخـمار أخـضر زمـردي ناعـم، زاد مـن لمعـان بشرتهـا وجـمال عينيهـا، قطـع تأملـه صوتهـا الـذي اشـتد حـدة، مـع إدراكهـا لتفحصـه الشـديد بـلا مبـالاة وهـي تقـول:

ـ هل ستدلني على المكتب أم أنك لا تعرفه؟

ـ وما الذي تبحثين عنه في مكتب العلاقات العامة؟

ارتفع حاجبها وهي تسأله:

ـ وما شأنك أنت؟

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يقول:

ـ فضول

ردت دون أن تبتسم:

ـ الفضول قد يكون قاتلا في كثير من الأحيان

اتسعت ابتسامته وهو يجيب:

ـ وقد يكون سببا لاكتشاف كبير

ابتسمت هي هذه المرة هازئة وقد ضاقت به ذرعا:

ـ لا أظن أن هناك أي اكتشاف بمعرفة سبب سؤالي عن مكتب العلاقات العامة، أعذرني ليس لدي وقت لأضيعه معك.

أكملت طريقها إلى الداخل، تبحث عن شخص آخر يدلها على الطريق، بينما يراقب هو ابتعادها، علم بعدها أنها الموظفة الجديدة في قسم العلاقات العامة، وأدرك فيما بعد أنها كانت أكبر اكتشافات حياته وأعظمها. لقد خالف منذ زمن قاعدة (المتهم بريء حتى تثبت إدانته) وآمن بأن (المتهم مذنب حتى تثبت براءته) ما عاد قادرا على تصديق أية مشاعر حتى لو كانت صادقة، كان يعلم أن هذا يؤدي الصادقين على قلتهم، وكم تمنى لو بقي على صفاء نيته، لكنه فقد الثقة، لأن الألم كان كبيرا ولا يحتمل، لذا أغلق كل الأبواب مع إدراكه أنه يخسر الكثير، لكن من لدغ من الحية يخشى الحبل، قلبه لم يعد قادرا على الإيمان من جديد، لقد كفر بالحب من شدة وحشته بعد الذي عاشه، فاختار الوحدة مخيرا قبل أن يجبر عليها، كان يحاول فقط أن يحمي نفسه من أوجاع جديدة قد تودي بقلبه إلى التهلكة، لكنه معها فوجئ بقلبه وهو يحن للثقة وللإيمان من جديد، وعندما كان ينهره لا يستجيب، فيكون أول من يخذله عندما فتح بابه في غفلة منه ونسي أذاه وألمه، كان قلبه يناجيها كوني

منهـم، كـوني مـن الصادقـين القلـة، رجـاءً اثبتـي عـلى صدقـك حتـى تثبـت براءتـك ولا تكـوني مـن الكاذبـين الذيـن لم يرفقـوا بالقلـوب.

عـاد "مـروان" إلى واقعـه وهـو يهـز رأسـه، يحـاول أن ينفـض عنـه هـذه الذكريـات، وقـد تيقـن منـذ عـدة أشـهر أنهـا كانـت فعـلا اكتشـافه، لكنهـا كانـت أسـوأ اكتشـاف أطـاح بـه وبقلبـه.

في الأيـام التـي تلـت لقاءهـما الأخـير، لم تغـادره صورتهـا، وهـي جالسـة أمامـه في ضعفهـا الـذي تخفيـه بتحديهـا، لم تغـادره كلماتهـا (لـو أنـك سـألت) أتـراه فعـلا تـسرع في الحكـم عليهـا؟ أتـراه صـدق مـا كان يؤمـن بـه دائمـا دون أن يمنحهـا " قرينـة الشـك " ؟ أتـراه صـدق رغبتـه المدفونـة التـي ظنهـا ماتـت بحبـه لهـا؟ ولكنهـا عـادت لتطفـو بمجـرد رؤيتـه لهـا رفقـة رجـل آخـر.

أعـاد الصـورة مـرات ومـرات، وهـو يحلـل مـا رآه هـذه المـرة بتعقـل، وثبـات عقـل وهـدوء عاصفـة الغضـب، بعـد أن مـرت الصدمـة الأولى التـي اسـتمرت شـهورا، (لم تكـن متبرجـة وهـي تخـرج مـن الملهـى الليـلي، كانـت ترتـدي حجابهـا الملتـزم كعادتهـا، لم يكـن لباسـها لبـاس مـن ذهبـت لقضـاء سـهرة في ملهـى ليـلي، لم يكـن وجههـا يحمـل أيـة زينـة تذكـر، بـل لم يكـن ضاحـكا ولا حتـى باسـما).

الآن يسـتعيد ملامحهـا الغاضبـة، التـي انفرجـت لوهلـة مـا إن رأتـه، لتتحـول لدهشـة وذهـول وهـو يبصـق عـلى وجههـا، لقـد أهانهـا بذلـك التـصرف وهـذا كان مقصـده، أن يوصـل لهـا اعتقـاده أنهـا لا تسـتحق حتـى الـكلام أو العتـاب، هـل يعقـل حقـا أنهـا كانـت بريئـة؟ أيعقـل أنـه لم يهتـم فعـلا؟ ولمـاذا لم يهتـم؟ مـارده النائـم بداخلـه هـو السـبب، لأنـه لا يعقـل أن تتهمـه

بأنه لو أحب لسأل، هو أحب والدليل أنه حتى مع إيمانه أنها خائنة، لم يستطع اقتلاعها من قلبه، لماذا لم يسأل إذن؟ لأنه موجوع، يشعر بالضعف لأنه استسلم، ويرغب بالانتصار لكرامته، لأنه يريد أن يستعيد رباطة جأشه وقوته، لأنه يريد أن يعود ذلك القاسي الذي لا يعرف الحب طريقا لقلبه.

عاد به شريط ذكرياته معها بصورة سريعة، وهو يتذكر محاولاته المستميتة في الإيقاع بها، في جعلها (رفيقته) في رفضها، في محاولاتها تجنبه، ثم في اتخاذها منهجا آخر معه، عندما قررت أن تقدم به شكوى إلى مدير الشركة، استكان هو بعدها، وهو يراقبها من بعيد، يتصيد لها خطئا يؤكد عقيدته في النساء، كبوة تجعله يستغلها ليعيد محاولاته، لكنه لم يجد شيئا، كانت علاقتها بزملائها لها حدود دائمة، هي من وضعتها وأرغمت الجميع على عدم تخطيها، كانت ملتزمة في لباسها، تبتعد بشكل كبير عن البهرجة أو الإثارة، مجتهدة في عملها، فرضت احترامها سريعا على الجميع، ولكنها أيضا كانت جميلة بشكل غريب، جمالها كان هادئا نابعا من رقتها، من التزامها، من عيونها التي تحتضن ثقة رهيبة بشخصها، وحذرا أغرب من كل رجل يحاول التقرب منها، بقي مراقبا من بعيد، إلى أن وجد أحد زملائهما يطلب منها زيارتها في منزلها، هو ووالديه، استوعب بعد دقائق وهو يسترق السمع، أن الرجل يريد الارتباط بها أمام العالم.

بات ليلته يصارع كابوسه القديم (صورة تلك في حضن رجل آخر) عندما استيقظ مفزوعا، يتصبب عرقا، فوجئ بخياله يستعيد صورتها هي "حوراء"

كبلسم قد يريح آلامه الشديدة، ومع استغراقه في تخيل وجهها وعينيها، هدأت روحه شيئا فشيئا، يومها أدرك يقينا أن "حوراء" لا تشبه أيا من نساء الأرض، لقد كانت حورية من عالم آخر ولكنها لم ولن تكون ملكه. في الأيام القادمة، كان يترقب سماع خبر خطوبتها بقلب منقبض، وخوف غريب، لكن الأيام كانت تمر، دون أن يأتي هذا الخبر، وأدرك فيما بعد أنها رفضت زميلها.

غير بعدها معاملته لها شيئا فشيئا، لم تتقبل هي الاحتكاك به بسهولة، لكنه كان يتحين الفرص التي تجعلها مرغمة على ذلك، بحكم عملهما معا، وجعلها جزءًا من حياته رغما عنها، لكنه كان يدرك أنه جزء لا يصلح إلا لبعث بعض الضوء إلى عتمة روحه، ومسكنا لتهدئة أوجاعه بعد كل مرة يرى فيها كابوسه الأزلي.

كانت أفكاره الهائجة تعصف به، بل تكاد تقتله حنقا وغضبا، لكنه كان يرفض الاستسلام، موقنا بحقيقة ما رأته عيناه وصدقه ظنه الذي آمن به منذ الأزل، لم تكن هي إلا خائنة أجادت تمثيل دور البراءة لبرهة من الزمن، لكن قناعها سقط يوم رآها تخرج بعد منتصف الليل، من ملهى صديقه ـ أو غريمه كما يحب أن يسميه ـ لكن ذكرياته معها كانت تصر على الدفاع عنها كأنها نصبت نفسها محاميا رفض السكوت وراح يطيل المرافعة فأنهكه ضجيجه وإلحاحه، وهزت حججه قناعته، فقرر أخيرا أن يسأل، لعله يستريح بتأكيد ظنونه وتكذيب مزاعمها.

الفصل الرابع: المواجهة

إذا كنت ترغب في استكشاف بحار جديدة، عليك أولا أن تتحلى بالشجاعة اللازمة لمغادرة الشاطئ

ونستون تشرشل (رئيس وزراء بريطانيا السابق)

غيداء

اتصلتُ بوالدتي وأعلمتها أنني أريد زيارتها، والبقاء عندها بضعة أيام، وأن سامر لن يقبل بذلك إلا إذا أخبرته أنها مريضة، وطلبتُ منها أن تؤكد ذلك إذا اتصل بها، وأن تقنعه أنها مريضة جدا، وبحاجة لتواجدي معها، أخبرته برغبتي تلك وبشدة مرض والدتي، ولعبت أمي دورها ببراعة في إقناعه بذلك، وافق هو أخيرا، وذهبت إلى بيت والدتي، ما إن رأتني حتى عرفت أن التي عادت إلى البيت، لم تكن تلك التي زارتها منذ عدة أسابيع، وأدركت بحدس الأم أن الأمر جلل، ضمتني إلى قلبها وهي تسألني بتأكيد غريب:

ـ ما الذي فعله بك؟ لقد ضيعك الجبان، وأنت لم تسمحي لأحدنا أن يدلك على طريق النجاة منه، ما الذي فعله بك؟ أخبريني .

على غير المتوقع لم أبك، كانت دموعي التي ذرفتها طيلة الأيام السابقة قد جفت، والتفكير الذي استنزفني منذ تلك الليلة، جعلني غير قادرة على إظهار مشاعري، كنت جامدة، أبدو كشخص غير معني بما حدث، لا مبالٍ بما كان أو ما سيكون في قادم الأيام، لكن على عكس مظهري فإن داخلي كان ينزف، نزيفا حادا يرفض أن يتوقف، وأعلم يقينا أنه سيستعصي عليّ مداواة الجرح الذي خلفه سامر، ما لم أنتقم لنفسي الجريحة منه أولا.

جلستُ مع والدتي، وقصصت عليها ما حدث في تلك الليلة التي أظلمت فيها الدنيا عليّ، واشتد سوادها حتى ظننتها نهايتي، لكن العتمة تجلت

بعدها لأرى الحقيقة كنور الفجر الذي شق هذا السواد، لأجد بعدها أول خطواتي التي ضاعت مني منذ عرفته " فسامر " حبيبي لم يكن حبيبي، وزوجي الذي لم يعتبرني يوما زوجته، بل فقط فرصته للتسلق إلى عالم لم يكن عالمه، وهو يستكثر عليّ انتمائي إليه، ويلوم القدر الذي لم يجعله من سكانه، وهو على اعتقاده، أنه يملك كل مقومات الفوز بحياة الغنى والترف، رجل لم يحمل من الرجولة إلا الاسم، رضي لنفسه أن يعيش على مدخرات زوجته، طامعا في مالها، ممثلا دور الزوج المحب، بينما كان الكره يملأ قلبه المريض.

انتفضت والدتي مسعورة وهي تصرخ وتهدد:

ـ الوغد الجبان، انتشلناه من الفقر ليذل ابنتي ابنة العز، هو لم يكن قبلك شيئا مذكورا، أنت من رفعته عاليا حتى صدق أنه أحسن منك، وأنك لا تستحقينه، سيدفع ثمن صنيعه بك غاليا، لن تعودي إليه، ستطلبين الطلاق منه.

أجبتها بهدوء غريب:

ـ اهدئي ماما ودعينا نفكر في الأمر، لو طلبت الطلاق منه فلن أكسب شيئا، لقد استنزف نصف مالك في المطعم الذي افتتحه، مع كل السيولة التي سحبها مني، وكل شيء مسجل باسمه حتى السيارة، ما عدا البيت الذي بقي لحسن الحظ باسمك أنت

ردت والدتي في غضب وهي ترى جرحي وكرامتي المهدورة:

ـ فليذهب المال إلى الجحيم، وليذهب هو معه، المهم هو أنت، أن تعودي كما كنت، أن تتخلصي منه ومن سجنه الذي زجك فيه، حتى

منعـك مـن كل شيء، لقـد كنـت كزهـرة يفـوح عبيرهـا عـلى كل مـن عرفهـا ومـرّ عليهـا، كنـت تلقـين البهجـة أينـما حللـت، وهـو حـاول بـكل الطـرق أن يطفـئ روحـك، لقـد أخـذ المـال لكـن مـا يهـم الآن أن تسـتعيدي روحـك منـه سـاعتها فقـط انتفـض شيء بداخـلي، وكأننـي أصبحـت معنيـة أخـيرا بمـا يحـدث، نظـرت إلى والـدتي وقـد اشـتعل بريـق عينـيّ:

ـ لا يـا ماما، لـن أرتـاح حتـى أسـلب منـه أعـز مـا يملـك، المـال الـذي تحملنـي مـن أجلـه، وهـو يكرهنـي ويحتقـرني، سـآخذه منـه، ليجـد نفسـه قـد تحملنـي طيلـة هـذا الوقـت، دون أن يكسـب شـيئا، سـاعتها فقـط يمكـن أن أرتـاح

نظرت إليّ والدتي متسائلة:

ـ وكيف ستفعلين ذلك، هو بالتأكيد لن يعيد إليك شيئا من مالك راضيا

ـ سأرغمه على ذلك

ردت أمي متعجبة شخصية ابنتها الجديدة:

ـ وكيف ستفعلين؟

أجبتهـا بالقـول بثقـة عجيبـة وقـد أصبحـت زاهـدة فيـه، ولا أطلـب إلا انتقامـا يعيـد إليّ شـيئا مـن كرامتـي:

ـ لا أعلم بعد، لكنني حتما سأجد طريقة لذلك

شيماء

في اليوم الموالي، اتجهت شيماء تبحث عن التلميذة التي رأتها تخرج من مكتب مديرها القذر، عندما عثرت عليها، ارتعبت الفتاة وجسمها يرتعش، كأن أحدا ضبطها متلبسة بفعل مجرَّم، لكن شيماء كانت تدرك أن ردة فعلها تلك طبيعية وأن التلميذة عرفتها وذلك ما زاد من خوفها وارتباكها. اتجهت إليها محاولة الحديث معها، فزاد ظهور الرعب على وجه الفتاة، مدت شيماء ذراعيها تحاول احتضانها، لكن التلميذة عادت إلى الوراء بسرعة مخيفة، لتصطدم بالجدار وتسقط على الأرض، احتضنت ركبتيها بذراعيها، مخفية رأسها وسطهما، بينما زادت رجفتها وهي تحاول كتم أنات بكائها الصامت، كأنها كانت تخفي عارا لم يكن عارها لكنه لطخها فنُسب إليها قهرا، اتسعت عينا شيماء وهي ترى منظر الفتاة، وتدرك حالة الشعور بالذنب التي تملكتها، الفتاة لم تخطئ في شيء سوى أنها خافت من تهديدات الرجل، الذي أوهمها أن الناس ستصدق أنها فعلت ما فعلته راضية مستكينة، قابلة راغبة.

قلب شيماء كان يتمزق حزنا عليها، وقد عرفت قذارة الرجل وجربت بنفسها بروده وطريقته في إلصاق التهمة بضحاياه، اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تحاول السيطرة على نفسها، ومنع دموعها من السقوط أمام الفتاة حتى لا تزيدها رعبا وهلعا، كانت تستدعي في هذه اللحظة كل قوتها الكامنة، حتى لا يبدو ضعفها وتأثرها أمامها، استجمعت قواها، وبدأت في مخاطبة الفتاة التي لم تكن تنظر إليها، برأسها المدفون وسط

ركبتيهـا، ولحسـن الحـظ كانـت القاعـة فارغـة إلا منهـما:

ـ أعرف ما فعله بك، كل ما أريده هو مساعدتك

صمت من الجانب الآخر، لتضيف شيماء محاولة طمأنة الفتاة المسكينة:

ـ الذنـب ليـس ذنبـك، هـو المذنـب، وهـو يحـاول إلصـاق التهمـة بـك، حتـى لا يفتضـح أمـره، أيًـا مـا قالـه لـك فهـو غـير صحيـح، أنـت لم تفعـلي شـيئا، ذلـك أسـلوبه، يحـصرك في الزاويـة ويبنـي حولـك جـدارا مـن الخـوف، شـعورك بالذنـب طبيعـي لكنـه غـير صحيـح، أنـت لم تفعـلي شـيئا هـو وحـده المذنـب، أنـت مجـرد فتـاة صغـيرة بريئـة كان يفـترض بـه حمايتـك لا انتهـاكك

انتظـرت شـيماء ردة فعـل مـن الفتـاة، لكـن لا شيء سـوى الرجفـة، فسـألتها تبتغـي حثهـا عـلى البـوح حتـى بصوتهـا المكتـوم أو بهـزة رأسـها، أي شيء كان سيسـاعد الفتـاة عـلى التحـرر مـن خوفهـا:

ـ هل هددك؟

ازدادت رجفـة الجسـد المتهالـك عـلى الأرض بشـكل أخـاف شـيماء أكـثر، وزاد في حزنهـا وقلقهـا عـلى الفتـاة، فمـدت يدهـا تمسـح عـلى شـعر الفتـاة، فانتفضـت هـذه الأخـيرة واقفـة تناظرهـا برعـب شـديد، والدمـوع تغـرق وجههـا الـبريء، في تلـك اللحظـة دخلـت معلمـة أخـرى القسـم، فخرجـت الفتـاة هاربـة مـن المـكان كأن بـاب الخـلاص فُتـح لهـا منطلقـة، عازمـة ألا تخطئـه، حاولـت شـيماء السـيطرة عـلى ارتباكهـا وتأثرهـا، حيَّـت زميلتهـا تحيـة مقتضبـة وغـادرت القسـم، لتنهـار باكيـة في المرحـاض تكتـم نحيبهـا، وحيرتهـا تكـبر بداخلهـا (مـاذا سـتفعل الآن؟).

بقيـت شـيماء بعدهـا أيامـا وليـالي وهـي تتصـارع مـع هواجسـها، والنـوم

يجافيها في أغلب الأوقات، لا تجد حلا لهذا الابتلاء الذي وضعت فيه، ما الذي يمكنها فعله لإنقاذ الفتيات البريئات من مخالب ذلك الوحش، وهي تجد نفسها عاجزة عن إيجاد الحل، لم تكن تستطيع السكوت على هذه الجريمة في حق بنات قلبها، ولكنها أيضا لم تكن تملك وسيلة لإنقاذهن، عجزها كان يدمي قلبها كل ليلة وهي تتخيل ذلك الوحش ينتهك براءة خلقت بصوت مكتوم لا يعلو حتى والجسد ينتهك والروح تسلب، لم تجد إلا الوقوف بين يديّ ربها تلجأ إليه طالبة العون، متسائلة في جهل الإنسان الضعيف العاجز عن رؤية القادم أو الحكمة من الحاضر، لماذا وضعها الله في هذا الموقف وهي غير قادرة على مدِّ يد العون لهاته الفتيات؟

في النهاية وأمام حيرتها وضياعها، عادت إلى قناعاتها وثقتها بالله وروحها تنشد في صمت:

إن للروح في صمتها صخبُ

وإن للنفس في هدوئها شغبُ

قل لمن نام حانقا يملأه الغضب

عين الله ساهرة والحساب يقتربُ

وكل أمرك لله إنه لا محالة غالبُ

وطب نفسا فإن الله لدعائك مجيبُ

سيأتيك فرجا منه الظالم يَعجبُ

وسيفرح القلب الجريح ويطيبُ

اتخـذت قـرارا قاسـيا لكنهـا لم تكـن تملـك غـيره، اتجهـت إلى مكتـب المديـر، طرقتـه ودخلـت مطالبـة الحديـث معـه، عـلى غـير العـادة جلـس هـو قبالتهـا وليـس بجانبهـا، وكأنـه يجـس النبـض لـيرى مـا توصلـت إليـه بعـد مـرور كل هـذه الأيـام، فجـاءه تأكيدهـا الظاهـر بينـما كانـت تمنـي نفسـها ألا يكـون قـد تعـدى بأفعالـه مـا تفكـر بـه:

ـ أنـا أعـرف مـا الـذي تفعلـه مـع فتيـات المدرسـة، أعـرف أنـك تتحـرش بهـنّ وتتلمـس أجسـادهن لتشـبع غرائـزك المريضـة

ابتسـم سـاخرا وأجابهـا محـاولا قلـب المناصـب، مـن مدافـع إلى مهاجـم، إسـتراتيجية تعلمهـا للدفـاع عـن نفسـه، وأتقنهـا مـع مـرور الوقـت

ـ أنـت متوهمـة، سـبق وأخبرتـك أن عُقـدَك مـن الرجـال، تجعلـك تتخيلـين أمـورا غريبـة، كرغبتـي بـك مثـلا

ـ ولماذا قد أتوهم ذلك؟

جاءها صوته حادا محاولا إيلامها حتى تتراجع للوراء أو تتقوقع في مكانها:

ـ لأنك شمطاء بشعة، لم يسبق لرجل أن نظر إليك نظرة إعجاب

توقـع أن تهتـز لوقـع كلماتـه القاسـية، لكنـه فوجـئ بأنـه لم يـرف لهـا جفـن، لقـد تعـودت منـذ زمـن عـلى مثـل هاتـه الكلـمات الجارحـة، ولم تعـد تفاجئهـا قسـوة البـشر، فـما بالـك بقسـوة وحـش آدمـي مثلـه

ـ دعـك مـن هـذا الهـراء، أنـا أعلـم أننـي شـمطاء، وأنـت تعلـم أنـك حاولـت التحـرش بي، لـذا أريـد أن أقـترح عليـك اقتراحـا

عاد بظهره على الكرسي، وهو ينظر إليها باهتمام واضح بما ستقوله:

ـ أنا أسمعك

خرج صوتها ثابتا وقد جاهدت لإخفاء توتّرها:

ـ أريد أن أسلمك نفسي تفعل بجسدي ما تريد، على ألا تقرب فتاة من فتيات المدرسة مرة أخرى

نظر إليها بتفرس هذه المرة، وابتسامة ترتسم على وجهه، سحب ورقة وكتب عليها جملة، ثم أدارها إليها لتقرأ عليها

(أطفئي هاتفك، ثم بعدها أريد أن أفتشك تفتيشا جسديا لأتأكد أنك لا تحملين مسجلا)

رفعت رأسها تنظر إليه نظرة لم يفهم مغزاها، مدّت أصبعها وأطفأت هاتفها أمامه، ثم وقفت فاردة ذراعيها وهي تقول:

ـ تفضل

قام من مجلسه وبدل أن يتجه إليها، اتجه إلى الباب يُحكم إغلاقه، ثم استدار إليها يبتسم متلذذا بسحر اللحظة التي انتظرها طويلا، فرغم قبح وجهها، إلا أنها كانت تملك جسدا جميلا بانحناءات فاتنة، لم يخطئها نظره الخبير في تصيد الأجساد، يقترب منها بمشية منتصر يتبختر بخطوات مغرورة، ليضع يديه القذرتين على جسدها، يتحسسه بحثا عن جهاز ما، لكنه كان يمعن في حركاته متماديا، بينما كانت هي تضغط على شفتيها، تمنع دموعها من النزول، محاولة كتم غضبها وقرفها، واستجماع قوتها، ثم أبعدته فجأة عنها بكلتا يديها وهي تقول:

ـ ليس قبل أن نتفق، أظنك تأكدت أني لا أحمل أي جهاز

جلست وهي تضيف:

ـ هذا إن كنت تريد أن نتفق

ابتسم مرة أخرى ابتسامته التي تستفزها، وهو يفكر أن هذه المرأة غبية لدرجة السذاجة، جلس هذه المرة بجانبها وهو يقول:

ـ لماذا تفعلين ذلك، تضحين بنفسك من أجل فتيات معوقات، مشوهات لن تجدي منهن حتى كلمة شكر، أم أنك ترغبين فعلا أن تتعرفي على لمسات رجل، وأنا لست أي رجل

أجابته مانعة رغبتها الجامحة في خربشة وجهه بأظافرها، محاولة السيطرة على أعصابها:

ـ سأخبرك بأسبابي، إذا أخبرتني عن الأسباب التي تدفع رجلا في مكانتك، مدير مدرسة محترمة للبنات ذوات الاحتياجات الخاصة، تشمئز منهن كما يبدو من وصفك لهن، متزوج من امرأة محترمة، سيدة مجتمع معروفة، إلى التحرش بهن، والتحرش بي أنا المرأة الشمطاء

ضحك ضحكة ساخرة وهو يقول:

ـ لا أعرف لم سأعترف لك بما لم أخبر به أحدا من قبل، لكن هذه اللعبة بدأت تروقني، يبدو أنني سأستمتع معك أكثر من استمتاعي مع أية امرأة أخرى صمت قليلا يعدل شاربيه بظهر سبابته، وينظر إليها في اشتهاء مفضوح كاد يخرجها من المكتب هاربة، لولا صورة الفتاة المرعوبة التي كانت تمنحها الشجاعة لمواصلة ما عزمت عليه، لتسمعه يردف قائلا بصوت أجش منتشٍ:

ـ أتلذذ بذلك، بضعفكن، باستسلامكن، وبخوفكن، لو كنت راضية ما رغبت بك، لكنني رأيت الخوف في عينيك، وذلك ما يغريني، الضعف الذي استشعره في كل مرة يثيرني ويفقدني عقلي، أنا لا أريد امرأة تمنحني

راضيـة، ولا امـرأة تطلـب أن أمنحهـا بالمقابـل، أريـد امـرأة مسـتكينة، ضعيفـة، مرعوبـة، جزعـة، أفعـل بهـا مـا أشـاء وقتـما أشـاء

كانـت هـي تسـمع كلماتـه المريضـة متشـبثة بصـورة الفتـاة حتـى لا تتراجـع، حتـى لا تفسـد مـا انتوتـه، وحتـى لا تغـرز أظافرهـا في وجهـه الـذي يبـدو لهـا الآن ذميـما يشـبه صـورة الشـيطان.

حاولـت مجاراتـه في الـكلام تريـد أن تجعلـه يعـترف لهـا بمـا تعرفـه، لكنهـا تريـد أن تتأكـد أو ربمـا تحـاول أن تفهـم كيـف يتحـول الإنسـان إلى وحـشٍ، ولكنهـا لم تكـن قـادرة إلا عـلى صياغـة جمـل قصـيرة تجاهـد لإخراجهـا دون أن تلقـي بمـا في جوفهـا عـلى وجهـه القـذر:

ـ لكنني امرأة قبيحة الوجه، كيف ستتحملني؟

ضحك مرة أخرى وهو يجيب عابثا متفاخرا:

ـ لـو كان الوجـه مـا يهمنـي، لاكتفيـت بجـمال وجـه زوجتـي، في لحظـات المتعـة لا ينظـر الرجـل إلى الوجـه، مـا يهمنـي هـو الجسـد المرتعـش، تحـت لمسـات يـدي، رعشـة الرعـب لهـا طعـم لا يضاهيـه ذوق آخـر أبـدا، ذلـك فقـط مـا أبحـث عنـه بـين الوجـوه الخائفـة وأسـعى إليـه بـكل حيـلي

حاولـت شـيماء السـيطرة عـلى رغبتهـا في إفـراغ مـا في جوفهـا، وإحسـاس بالقـرف يسـكنها، مـن هـذا المريـض الـذي يجلـس أمامهـا، وهـي تضيـف بقـوة تدعيهـا:

ـ حسـنا، لكننـي أريـدك أن تعـدني، بأنـك لـن تلمـس فتـاة مـن فتيـات المدرسـة، ولـن تتحـرش بأيـة واحـدة منهـن، طالمـا أنـا معـك، مسـلمة لـك جسـدي تفعـل بـه مـا تشـاء

ابتسم هو بخبث وهو يجيبها:

ـ لقد أخبرتك أن ما يهمني هو الجسد المرتعب تحت يديّ، أخاف أن تعتادي عليَّ، ويختفي خوفك، بل قد تحبين ذلك وتطلبينه أنت

ابتسمت هي هذه المرة ابتسامة مفتعلة وهي تقول:

ـ لا تخشى شيئا، أنت بالنسبة لي جرذ قذر، وأنا لا أحب القذارة

ضحك مرة أخرى، ضحكة مجلجلة وهو يقول:

ـ يعجبني ذلك، وأنا سألتزم باتفاقنا ما بقيتِ أنتِ كذلك

مدَّ يده ليتلمس فخذها، لكنها أبعدتها قبل أن تستقر عليه:

ـ أريد أن أسمعك تقولها بلسانك، حتى لا تدعي يوما أنك لم تقل شيئا كهذا

ضحك مرة أخرى، بينما سمعها تواصل أريدك أن تقول:

ـ أعدك بأنني لن ألمس فتاة من فتيات المدرسة مرة أخرى، ولن أتحرش بهن، طالما أنت مسلمة جسدك لي، أفعل به ما أشاء، خائفة مرتجفة

أوحى له غروره أن المرأة التي بجانبه مجنونة، إذ تصدق بسذاجة أنه سيحفظ مثل هذا العهد حتى لو كرره على مسامعها آلاف المرات، كرر الجملة بعدها، وهو لا ينوي الوفاء بوعده ذاك، ثم مدَّ يده يريد أن يبدأ تنفيذ الاتفاق حالا، لكنها منعته بحركة من يدها وهي تقف قائلة:

ـ ليس اليوم، أريد أن أستعد لأنني منهكة، كما أن جلستنا قد طالت، وقد يشك أحد بالخارج

نظر هو إلى الباب، ثم إلى ساعة يده التي كانت تشير إلى قرب وقت الجرس، وقال مسلما:

ـ حسنا، لك هذا

اتجهـت إلى البـاب، فتحتـه وخرجـت دون أن تلتفـت إليـه، كانـت تسـير بخطـى منهكـة، رغـم محاولـة إسراعهـا، اتجهـت إلى مـكان المراحيـض، دخلـت وأغلقـت البـاب عليهـا، ليفلـت منهـا خوفهـا الـذي كانـت تكتمـه، فتحتضـن جسـدها المرتعـش وتـترك العنـان لموجـات القـيء التـي كانـت تتقلـب في بطنهـا، للخـروج، موجـة تصطـدم بالأخـرى، وعيونهـا تنـزف دموعـا حـارة بحـرارة ألمهـا، مُـرة بمـرارة واقعهـا وصـورة الفتـاة لا تفـارق مخيلتهـا.

حوراء

كان صاحب الملهى يعرف "مروان" جيدا، استقبله في مكتبه، مجيبا على تساؤلاته، إنه يتذكر ذلك اليوم جيدا، لأن المرأة ذكرت أنها خطيبته عندما اتجه إليها مستفسرا بعدما رأى تجمهر الحاضرين حولها وهي تصرخ بأعلى صوتها، حتى و إن كانت الأصوات الصاخبة تطغى عليه، إلا أن تقاسيم وجهها كانت تشي بحالة الغضب التي كانت تتلبسها، وهو تعجب من الأمر لأنها لم تكن تشبه نوع مروان المفضل في النساء، بمعرفته السابقة والطويلة به كان يعرف أن مروان لا يصاحب إلا النساء المثيرات بشكل ملفت للنظر، بينما هي كانت ترتدي حجابا بسيطا بوجه خالٍ من أي زينة، رغم أنه لا ينكر جمالها الطبيعي الذي لا يمكن لرجل أن يخطئه، لكنها في النهاية كانت تبدو غريبة على هذا المكان الصاخب والمبهرج بكل ما فيه، ذكر له أنها لم تبق إلا دقائق، بعد أن أثارت مشكلة مع صديقه، وهو تدخل لفك النزاع، فخرجت هي غاضبة، وخرج صديقه وراءها.

انقبض قلبه وهو يسمع هذه الكلمات، تتخللها كلماتها مترددة في عقله (لو أنك سألت، لو أنك أحببت) خرج من المكتب مغادرا بعد الذي سمعه لا يعلم إلى أين، وقد أصبح العالم جهنم تحرقه أرضها، وقد أضاع جنته يوم (لم يسأل)، أي أرض ستقبله اليوم؟ أي ضياع سيتلقفه؟ أين يمضي بفجيعته؟ وقد التهبت نيران ندمه بداخله، حتى أضحى يشعر، أنه لو فتح فمه ليتكلم لخرجت من جوفه نيران تحرق المدينة كلها،

مـاذا يفعـل وجهنـم تسـكنه قبـل أن يسـكنها؟ لا يسـتطيع العـودة إليهـا، لا يسـتطيع مواجهتهـا، مـاذا سـيقول لهـا (اغفـري وسـامحي) وهـل مـا فعلـه يغتفـر، أو مثلـه يسـتحق المسـامحة؟ هـو لم يحـترق اليـوم ولا يـوم رآهـا مـع غريمـه، هـو احـترق يـوم رآهـا هـي، يـوم رأى والدتـه مـع رجـل آخـر، في فـراش والـده، هـو لم يعـرف الضيـاع بعـد أن عـرف الحقيقـة، هـو ضـاع يـوم قتـل والـده نفسـه، بـدل قتـل زوجتـه الخائنـة، ليتركهـا تفـر مـن البلـد إلى بـلاد أخـرى هاربـة مـن الفضيحـة، تاركـة إيـاه ليواجـه أقاويـل النـاس وظلمهـم، رغـم أنـه لم يكـن إلا مراهقـا يخطـو خطواتـه الأولى في عـالم الرجولـة، لكنهـا قضـت عـلى روحـه ولونتهـا بالسـواد، سـواد الغـدر والخيانـة، سـواد ضعـف والـده أمامهـا هـي والدتـه، سـواد نظـرات النـاس إليـه ووشوشـاتهم التـي كانـت تؤذيـه غـير مكترثـين بفجيعتـه، هـي والدتـه التـي تركتـه أسـير صـورة رسـخت في ذاكرتـه، كان هـو الشـاهد الأكـبر عليهـا، أمٌ خانـت، وغـدرت، وتخلـت عـن طفلهـا، ورحلـت بعـد أن تسـببت في قتـل زوجهـا، وقتـل روح ابنهـا، فتـاه في عـالم الظلمـة والحقـد والكـره.

وهـب أن "حـوراء" غفـرت، هـل سـيضمن أنـه لـن يشـك مـرة أخـرى؟ لـن يسـقط في غياهـب ماضيـه إذا رأى إشـارة أخـرى كاذبـة. أيضمـن أنـه لـن يهينهـا، لـن يتركهـا، لـن يتهمهـا؟ أو ربمـا... لـن يقتلهـا.

هـي لـن تغفـر، وهـو لـن يطلـب المغفـرة، هـو لا يسـتحقها، لأنـه ملـوث بمـاضٍ سـكنه، بإثـم يحـرق روحـه، بذنـب ليـس هـو مـن ارتكبـه، لكنـه هو مـن يدفع ثمنـه، هـو رجل مريض، الآن يعـترف بذلك، هو رجل مريـض، تعذبه صورة امرأة قتلـت يومـا طفولتـه، فقضـت عـلى أي أمـل اليـوم للرجـل بداخله، وهـي امرأة

تستحق رجلا يعرف قيمة الجوهرة التي بين يديه، ويعرف كيف يقدرها. يتذكر ذلك اليوم، بعد مناقراتهم لشهور طويلة، عندما دخلت المستشفى وغابت عن الشركة لمدة أسبوعين في عطلة مرضية، عندما جاءها زائرا في المستشفى، وقد تاق شوقا إليها، وهو يغالب نفسه منذ علم بأنها أجرت عملية جراحية، يمنع نفسه عن السؤال عنها، بينما يسترق المعلومات من حديث صديقاتها، يرفض زيارتها حتى لا يعترف بحاجته إليها، وإلى وجودها في عالمه، لكنه يحلم بها كل ليلة، غادره أثناء غيابها كابوسه الأزلي، وسكنه كابوس آخر، حتى أضحى يراها ميتة على سرير المستشفى، فيستفيق مفزوعا مرعوبا، تتسارع دقات قلبه، حتى يظن أنه سيخرج من صدره ليلحق بها، ويتصبب العرق على كامل جسده، حتى تكاد الحمى تصيبه، ويغالب، ويقاوم، لكنه رضخ في الأخير مغيبا، عندما وجد قدميه تجرانه إليها، فيجدها نائمة هناك وحدها على سرير المرض، بعد أن غادرتها والدتها لتوها لإحضار ملابس نظيفة لها، بقي واقفا مكانه، يطالع وجهها البريء، الذي أسره من أول يوم رآها فيه، ويتطلع لفتحها عينيها، حتى يستكين هناك في مقلتيها، لعله يرتاح بشعوره المخادع، أنه بطريقة ما استطاع أن يسكن جزءًا منها، كان يفقد عقله، بل ما بقي له من عقل، فقد كان يعرف أنه كبر شابا مجنونا، بنصف روح، وبقايا عقل، وها هو على وشك فقد كل الذي تبقى له، على يديها، عاد يتأملها بوجهها الجميل رغم شحوبه، وهو يحلم بحلم يعلم أنه مستحيل، لو كان رجلا عاديا لكان جعل منها زوجته، وحبيبته، لكان الآن يطوقها بذراعيه لتنام في حضنه، لاعتنى بها وأغرقها في موجات

اهتمامـه، لـو كان رجـلا بـلا مـاضٍ مريـض وعقـدٍ أورثهـا لـه والديـن غـير سـويين، لعـرف عـلى يديهـا كيـف يُـروى الشـوق، ويُسـقى الحـب، كيـف يطفـأ الحنـين، ويسـتكين الخـوف، لتعلـم معهـا كيـف يحـب الرجـل امـرأة، ويهيـم بهـا، كيـف يجعلهـا امرأتـه، ودنيـاه، لعلمهـا كيـف تتولـه هـي برجلهـا وتسـتأمنه عـلى قلبهـا وحياتهـا، لـو كان رجـلا عاديـا لنـام هـو بـين ذراعيهـا، وشـدد حصـار ذراعيـه عليهـا حتـى تعـرف روحـه المعذبـة الراحـة أخـيرا، لكنـه لم يكـن رجـلا عاديـا، كان رجـلا مشـوهة روحـه، تائـه قلبـه في ظـلام المـاضي. أطلقـت روحـه تنهيـدة وجـع، شـوق، وألم (آآآآآآآآآآه مـن قـدر اختـاره هـو، مـن دون البـشر ليُسـكِنه جهنـم فـوق الأرض، يحـترق بلهيبهـا، وهـو غـير قـادر عـلى الخـروج منهـا، ولا يعـرف كيـف، آآآآآآآآآآآه ويـا حرقـة الآه التـي تسـكن روحـه، شـوقا لجنـة يريـد أن يسـكنها، بـين يـديّ تلـك النائمـة، غـير مدركـة لنيرانـه المشـتعلة بسـببها)

كان قـد تعـود غربتـه قبلهـا، فلـمَ جاءتـه كحلـم مسـتحيل المنـال، لمَ صادفهـا وتعـثر بهـا ليعـرف معهـا معنـى الحرمـان، معنـى أن يشـتهي الرجـل حيـاة يوقـن أنـه لـن ينالهـا، معنـى أن يعـرف قلبـه هـذا الضعـف بعـد أن أغرقتـه القسـوة فيحـاول أن يتمسـك بقشـة براءتهـا ليـدرك أن همومـه أثقـل مـن أن تتحملهـا القشـة، وأنـه إن أصرّ عـلى التمسـك بهـا سـيغرق ويأخـذ معـه القشـة في دوامـة غرقـه، وهـو يرفـض أن يضحـي بها ويستسـلم لتلـك الرغبـة الجامحة التـي تدعـوه للتعلـق بهـا والإمسـاك بحبـل قلبهـا، هـو اعتـاد عـلى الحـزن، عـلى الوحـدة، عـلى الضيـاع، ولـن يدخلهـا عالمـه المظلـم، هـي لا تسـتحق منـه ذلـك، وهـو وبرغـم كل عيوبـه، ليـس بتلـك الأنانيـة.

فجـأة فتحـت هـي عينيهـا، وابتسـمت لـه، فاجأتـه ابتسـامتها، وربمـا فاجأتهـا هـي قبلـه، وهـي تسـأله بصيغـة تأكيـد:

ـ جئت لزيارتي؟

أومأ برأسه إيجابا،وهو لم يستعد بعد سيطرته على نفسه المضطربة

اتسعت ابتسامتها وهي تردف:

ـ لم تسـتطع مقاومـة فضولـك، أليـس كذلـك؟ كأول مـرة رأيتنـي فيهـا، وقـد أخبرتـك أن الفضـول يمكـن أن يقتلـك يومـا

ابتسـم هـو هـذه المـرة، وهـو يـدرك أن الأمـر أبعـد بكثـير مـن الفضـول، إنـه الشـوق الغريـب الـذي سـحبه إليهـا، يؤكـد لنفسـه أنـه شـوق ليـس لـه معنى، ولا مغـزى، ليـس لـه هـدف، ولا نهايـة، فقـط شـوق نكـرة، غـير معـرَّف، لم يعرفـه قبـلا ولا يجـد لـه عنوانـا

أجابها كاذبا، محاولا إبعاد أفكاره المجنونة:

ـ كنـت أمـر مـن هنـا، وأردت أن أبـدو "جنتلـمان" لكنـك لسـت " ليـدي" كـما يبـدو، غـرورك يومـا، هـو مـا سـيقتلك أنـت

ضحكـت هـي مـن رده، لكنهـا توقفـت فجـأة وهـي تـئن، وتضـع يدهـا مـكان الجـرح، قفـز قلبـه مـن مكانـه، وهـو ينحنـي بجذعـه عليهـا، يسـألها في لهفـة:

ـ هل تتألمين؟

لامسـت يـده يدهـا مـن غـير وعـي منـه، فسـحبتها مصدومـة، بينـما عـاد واقفـا وهـو يعتـذر:

ـ أنا آسف، لم أقصد شيئا، كانت ردة فعل غير مقصودة عندما...

تاهـت منـه كلماتـه، وتـاه في تفاصيلهـا وهـو يـرى وجههـا المصـدوم، فعـاد

يحـاول الاعتـذار مـن جديـد:

ـ لم أقصد ما خطر ببالك

ابتســمت هــي مســتمتعة بارتباكــه، وتلبســتها رغبــة غريبــة في مناوشــته وإحراجــه أكــثر:

ـ وما الذي خطر ببالي؟

اتسعت عيناه تعجبا وهو لا يجد ما يجيب به

فاتسعت ابتسامتها وهي تستطرد قائلة:

ـ لا بـد أن ماضيـك مـع النسـاء محـرج جـدا يـا سـيد "جنتلـمان" حتـى تعـرف مـا يمكـن أن يخطـر ببـالي مـن أفـكار شريـرة اتجاهـك

فغـر فاهـه، وهـو يريـد أن يجيبهـا بجملـة تسـكتها، لكنـه تراجـع وهـو يـدرك مـن ابتسـامتها المتلاعبـة أنهـا تحـاول اسـتفزازه، فعـاد ينحنـي بجدعـه عليهـا، ببـطء شـديد مـدروس مـن رجـل يعـرف جيـدا كيـف يبعـثر امـرأة في حضرتـه، حتـى أصبـح قريبـا مـن وجههـا، ولكنهـا كطفلـة صغـيرة رفعـت يديهـا وغطـت بهـما وجههـا، لكنـه سـحب يديهـا، وبقـي ينظـر إلى عينيهـا اللتـان تحمـلان تناقضـا رهيبـا، بـين شـدة بياضهـما وسـواد حدقتيهـما، دون أن يبتسـم، ارتبكت هـي وازدردت ريقهـا بصعوبـة، وهـي تسـمعه يقـول:

ـ لا تدخـلي في لعبـة لا تسـتطيعين الاسـتمرار فيهـا "ليـدي" الانسـحاب مـن وسـط اللعبـة جـبن.

رفـع رأسـه بنفـس البطء الـذي قربه به منها، ثـم ترك يديها وهو يبتسـم مردفا:

ـ حمدا لله على سلامتك.

اسـتدار بعدهـا خارجـا يحـاول لملمـة بعثرتـه هـو، تلـك التـي تناثـرت بقربـه

الشـديد منهـا، وأنفاسـها المضطربـة تفعـل بـه الأفاعيـل وتشـعل بداخلـه نـيران الشـوق والغوايـة، عيناهـا سـجن يـأسره، لا بـل بحـر هائـج يجذبـه إلى القـاع، وهـو مـازال يقـاوم، لطالمـا كان سـباحا ماهـرا في بحـر النسـاء، لكنـه في حـضرة هدوئهـا الخـادع نـسي أن الأمـواج قـد ترتفـع في غفلـة وترديـه صريـع ثقتـه العميـاء أو ربمـا غـروره، كان يحـاول إرباكهـا لكنـه لم يتوقـع أن يقـع هو نفسـه في الفـخ الـذي نصبـه لهـا، لم يكـن يـدرك أن قربهـا يمكـن أن يشـتت حواسـه، ولـولا بعـض التعقـل الـذي كان يـصرخ بـه (لا تـورط نفسـك فيـما لا قـدرة لـك عـلى مسـايرته) لـكان تمـادى وحقـق حلمـه بضمهـا والارتـواء منهـا، وليحـدث بعدهـا مـا يحـدث، لكنـه يكـذب عـلى نفسـه، هـو يعـرف أنـه لا يريـد للـذي يمكـن أن يحـدث، أن يحـدث، هـو خائـف، مرعـوب، وجـل مـما يمكـن أن يحـدث لـو أنـه استسـلم، هـي كانـت الجنـة التـي يتـوق لهـا المؤمـن، وهـو كان يعـرف أنـه لا يملـك الرصيـد الـكافي الـذي يسـمح لـه بدخـول الجنـة، هـو كان الجحيـم، وهـي لم تكـن مـن العاصـين المحكـوم عليهـم بنـار جهنـم، هـما عالمـان متوازيـان كتـب عليهـما أن يسـيرا في طريقـين متوازيـين لا يلتقيـان أبـدا، وهـو كان يحـترق بلظـى هـذه الحقيقـة التـي يدركهـا أكـثر من أي شـخص آخر.

أمـا هـي فكانـت بعـد خروجـه تناظـر البـاب الـذي مـضى منـه، تحـاول اسـتعادة أنفاسـها التـي انقطعـت غـير مسـتوعبة لهـذا الـذي فعلـه بهـا قربـه وهـي تلعـن نفسـها (مـا الـذي دهاهـا؟ مـن أيـن ظهـرت عندهـا هـذه الرغبـة الغريبـة في اسـتفزازه) تحـاول أن تفهـم مـا الـذي حـدث لتـوه جعـل جسـدها كلـه يدخـل في حالـة ارتعـاش تشـبه الحمـى، داخلهـا يلتهـب بنـار الارتبـاك، قلبهـا يضـخ حمـما لم تجـد لهـا تفسـيرا، وعقلهـا ينهرهـا (لا تجـازفي بـكل مـا

اكتسبناه، في سبيل حمى قد تقضي عليك وتصيبنا بالسكتة أنا وقلبك المسكين، هذا الذي تشعرين به من نسج الإثارة، وفجاءة الغارة، لكنك امرأة عاقلة لا تؤمن بالخيال ولا تستسلم إلا لمن يثبت أحقيته وقدرته على الدفاع على راية الإمارة).

ذلك اليوم كان منعرجا جديدا في علاقتهما الغريبة، فبعد عودتها إلى العمل، كان كل منهما يدرك، أن شيئا تغير في قلب كليهما رغم أن لا أحد منهما كان يريد الاعتراف بذلك حتى بينه وبين نفسه، فلا هو كان قادرا على منحها ما لا يملك من ثقة وأمان، ولا هي كانت راغبة في الثقة برجل ماضيه أسود وتاريخه مشوه، يقاومان رغبة جامحة في الاقتراب، فيبتعدان، لكنهما يستسلمان ويعودان أكثر شوقا، أكثر حيرة، أكثر إصرارا على البعد، وإنكارا للذي يحدث في قلبيهما، يوهمان نفسيهما، أن القرب لا يحرق، وأن البعد ينمي الفضول فقط، أن الفضول يموت بالمعرفة، أنهما إن عرفا سهل البعد، لكنهما كلما توغلا في بعضهما، زاد الفضول، ونما الشوق، وكبرت تلك الحاجة التي ينكرانها، حاجة في الانصهار في الآخر، والذوبان فيه، حتى يهدأ الفؤاد ويستكين العقل وتنطفئ النار وتخمد أخيرا.

في حاضرها، كانت الأيام تمر عليها عصيبة، لم يتوقف قلبها عن النحيب، تناجيه في صمت قاتل، وهي تعلم أن مناجاتها لن تصل، ولا تريد لها أن تصله، هي فقط لوعة قلب يريد أن ينفث النار التي بداخله يشتد بها الحنين وما أصعب الحنين حين يداهمك لمن رحلوا وتركوا في قلبك شوق لا ينضب، بينما تدرك أن محاولاتك للنسيان لم تكن سوى مخدر قصير

مـدى مفعولـه، ولا تملـك إلا النحيـب الصامـت.

(كيـف طاوعـك قلبـك عـلى فعـل مـا فعلـت، ألسـت أنـت مـن وعـدني أن يبقـى العمـر كلـه معـي، ألسـت أنـت مـن إلى قلبـه ضمنـي، وقـال لي، هـذا القلـب مدينتـك فـلا تتركيهـا، فتصـير مـن بعـدك قفـارا وخرابـا، رحلـت المدينة، وتركتنـي بـلا وطـن، أيـن أحـط ترحـالي اليـوم، ولا وطـن لي بعـدك؟ أسـافر وأرتحـل بحثـا عـن دفئـك، ولا أجـد إلا الـبرود، صقيـع يقابلنـي في كل مدينـة أدخلهـا، وكأنهـا تطـردني قبـل أن أصـل، هـذه ليسـت مدينتـك، وصمتنـي ببصمتـك، فصـارت المدائـن تلفظنـي، لمـاذا تركتنـي أؤمـن بـأني وصلـت؟ ويمكن أن أحـط ترحـالي بدنيـاك، كيـف سـأعيش اليـوم؟ ولا دنيـا لي أضـع فيهـا تعبـي وحقائبـي، لا دنيـا لي اليـوم حتـى لأبكيـك فيهـا، مـا كنـت فعلـت مـا فعلـت، لـو أنـك أحببـت، أيـا حبيبـا أوجـع القلـب وأدمـى الفـؤاد، مـا كنـت هجـرت وقسـوت لـو أنـك أحببـت، مـا كان طاوعـك حبـك لـو أنـك مثـلي عشـقت)

عـاد بهـا الحنـين إلى أيـام كان يركـض وراءهـا، لينـال رضاهـا، بينـما كانـت هـي تصـده وقـد وصلتهـا سـمعته التـي لم يحـاول يومـا إخفاءهـا أو إنكارهـا، كان يباهـي بأنـه رجـل لم يخلـق لامـرأة واحـدة، وأنـه ليـس ذنبـه إن كانـت النسـاء تقبـل عـلى نفسـها مصاحبته، وهنَّ يعرفـن حقيقته، لكنها كانـت تجابهه بردها:

ـ أنـا لسـت ككل النسـاء، أنـا نجمـة عاليـة في الفضـاء، عـلى مـن يريدهـا، أن يجـد طريقـه إلى السـماء.

وكان دائما يرد عليها بكلمة واحدة:

ـ مغرورة

وكانت تجيبه:

ـ بـل صاحبـة كبريـاء، تلـك الصفـة التـي لا تعرفهـا لا أنـت، ولا رفيقاتـك، فأنـت لا تصاحـب سـوى الجاريـات، وأنـا امـرأة يمكـن أن تحـترق حبـا، ولا ترضـخ، لأنهـا صاحبـة كبريـاء.

يبتسم هو ابتسامة ماكرة ويسألها:

ـ هل هذا اعتراف بالحب، لكنك تكابرين

فترد هي ساخرة:

ـ يبدو أن عقلك المسكين لا يستوعب أن الأميرة، لا يمكنها أن تعشق ذئبا

فيجيبها وقد اتسعت ابتسامته:

ـ لكنها قد تعشق وحشا

لترد عليه بسخرية أكبر:

ـ عـلى الأقـل، يحسـب لـك أنـك تعـرف قيمـة نفسـك جيـدا، ولكننـا لسـنا في عـالم الخيـال، فهـذا الواقـع، وهنـا لا أمـيرة قـد تعشـق وحشـا، وتحولـه بقبلـة إلى إنسـان.

ينفجر هو ضاحكا في صخب مغيظ لحواسها :

ـ كنـا في الحـب، وانتقلنـا إلى العشـق، وهـا نحـن نصـل إلى القبلـة، يبـدو أن لديـك مكبوتـات كبـيرة أيتهـا الأمـيرة، وسـأكون سـعيدا بإخراجهـا إلى الواقـع وإرضائهـا

تنظر إليه شزرا وهي تمنع نفسها من شتمه:

ـ لا تشـغل نفسـك بي، اهتـم بمكبوتاتـك أنـت، لتتصالـح مـع واقعـك، ربمـا قـد تعـود يومـا إنسـانا .

تتذكـر يومهـا، كيـف تحـول وجهـه السـاخر إلى حـازم، يكتـم غضبـا عـلى

وشك الانفجار، لم تفهم يومها أسبابه، لكنها علمت فيما بعد من إحدى الموظفات في الشركة، قصة ماضيه، وفهمت لمَ كبر الطفل بداخله، ليتحول إلى هذا الوحش الذي يطارد فرائسه، فيتغذى عليها حتى يواصل العيش، وكأنها كانت سبيله الوحيد لمواصلة المسير، في ظلمة ماضيه التي غشت على حاضره.

أعادها إلى حاضرها هي، صوت والدتها التي كانت تعرف بانفصالها عن هذا الذي كان سيتقدم لخطبتها، أياما قبل أن يفعل، لكن ابنتها أحجمت عن ذكر التفاصيل، ولم تلح هي على معرفتها، كان يكفيها أن ترى الألم الذي غلف حياة ابنتها، منذ هذا الانفصال، لتدرك أن قلب ابنتها جرح، والجرح عميق وشديد الألم، يرفض التعافي والشفاء.

ـ العشاء جاهز حبيبتي

انتفضت هي متفاجئة، محاولة استيعاب كلمات والدتها:

ـ لا رغبة لي في الأكل، لست جائعة ماما

اقتربت والدتها منها، لتضع يدها على شعرها تمسده:

ـ إلى متى حبيبتي، ليس هو أول الرجال ولن يكون آخرهم، إذا لم يكن مقدرا لك فلا حزنك سيعيده، ولا دموعك التي تذرفينها عليه، منذ عدة أشهر دون أن تتوقف أو تجف

ازدردت هي ريقها، محاولة التهرب من نظرات والدتها، التي كانت تحمل من الشفقة الكثير، ومن الحب أكثر

ـ أنا لا أبكي يا أمي، هي فترة وستمر

جلست والدتها على السرير مقابلة لها، وهي تقول:

ـ أتظنين أنني لا أسمع شهقاتك ليلا، حتى وباب غرفتك مغلق؟ أتتصورين أن قلب الأم بداخلي، لا يحس بتخبطك وتقلبك ليلا، وأنت تصارعين طيفه في أحلامك؟ أتتخيلين أن روح أمك لا تحس بعذابات روحك منذ انفصالك عنه؟ رغم أنني لا أعرف السبب ولا التفاصيل، لكنني أعرف أنه جرحك جرحا عميقا، تسبب في كسر روحك المكابرة، التي لم ترضَ يوما بالهزيمة، وكانت تصر دائما على الوقوف بعد كل عثرة، لكنك هذه المرة أطلت البقاء ساقطة على الأرض، وأنت ترفضين حتى محاولة الوقوف

رفعت "حوراء"عينيها، لتنظر إلى وجه والدتها الحبيبة، وهي تقول في صوت مكسور رغم محاولتها جعله يبدو أكثر قوة وثباتا:

ـ أنا لا أبكيه هو، بل أبكي غبائي عندما صدقت أنه تغير من أجلي، أبكي ثقتي به، التي رماها بشكه حتى كسرها، فأصبحت تبدو كزجاج مهشم، لم يكن يوما قويا ليصمد أمام ماضيه، أبكي غروري الأحمق، الذي آمن بأنني وحدي، كنت قادرة على هزم أشباحه، أبكي كبريائي التي رضخت أمامه، فداسها بقدميه، وأكمل المسير غير مكترث بها...

تهدج صوتها وسكتت غير قادرة على إكمال كلماتها، فضمتها والدتها إلى حضنها وهي تخاطبها بصوت غلبت عليه مشاعر الأمومة رغم أنها لم تكن تفهم كلمات ابنتها:

ـ ابكي حبيبتي، ابكي قدر ما تشائين، لكن لا تبكيه العمر كله، فهو لا يستحق أن تضيعي العمر على ذكرى جرحه، عندما هجرنا والدك بكيت كثيرا وأنا أسأل نفسي ما الذي قصرت فيه، ما الذي كان بإمكاني منحه له زيادة عن كل ما قدمته، كنت امرأة محبة وزوجة مطيعة، راضية

بـكل مـا جـاد بـه، وصابـرة عـلى كل مـا أمسـكه عنـي، لم أشـتك يومـا ولم أطلـب أكـثر مـما رضي بـأن يعطيـه، لكننـي أدركـت في الأخـير ألا فائـدة مـن البـكاء، المحـب يـا ابنتـي لا يحتـاج أن نطلـب منـه اهتمامـا فهـو يعطيـه بـروح راضيـة، مـن أحبـك سـيصونك ويتخطـى كل المشـاكل ويجـد التبريـرات ليبقـى معـك، أمـا مـن هجـر فهـو لم يحبـك صدقـا، ولم يهتـم لوجعـك وخيبتـك، اسـتعيدي زمـام حياتـك حبيبتـي، وقفـي مـن جديـد، كـما عهدتـك دائمـا قويـة مكابـرة، وصاحبـة كبريـاء، تلـك ابنتـي التـي ربيتهـا عـلى ألا ترضـخ مهـما كانـت الصعـاب، وعـلى أن تكمـل المسـير مهـما كـثرت العـثرات، عـلى ألا تلتفـت للـوراء ولا تعـد الخسـارات إنمـا تتـوق للانتصـارات وتسـعى لتحقيقهـا غـير عابئـة بالحفـر والمطبـات

صمتت أم حوراء قليلا ثم أضافت في حنوٍ وثقة:

يـا ابنتـي إن اللـه أرحـم بعبـاده مـن الأم بولدهـا، إذا سـدت النوافـذ في وجهـك فـلا تقنطـي مـن رحمـة اللـه، مـا أغلـق النوافـذ إلا ليفتـح لـك الأبـواب، وإذا سـدت الأبـواب فـلا تسـتهيني بحكمتـه، مـا أغلـق الأبـواب إلا ليجـبرك عـلى الالتفـات، وتيقنـي أنـه هنـاك عـلى مـدِّ البـصر يوجـد طريـق النجـاة.

انفجـرت "حـوراء" بالبـكاء وهـي تخفـي وجههـا في حضـن دنياهـا، والدتهـا التـي لم تبخـل يومـا عليهـا بـشيء، احتوتهـا دائمـا في لحظـات ضعفها، وسـاندتها في سـاعات قوتهـا، بكـت، وبكـت راغبـة في التخلـص مـن هـذا الضعـف الـذي لم تعرفـه قبلـه، آملـة في أن تكـون هـذه آخـر دمعـات حبهـا، وفقدهـا، عازمـة عـلى أن تقـف بعـده مـن جديـد.

بحثـت بعدهـا عـن عمـل جديـد، بعـد أن كانـت قـد تركـت وظيفتهـا في

الشركـة التـي يعمـل فيهـا، غـير قـادرة عـلى رؤيتـه كل يـوم، ولا تحمـل وجـوده معهـا في نفـس المـكان، لم تسـتطع النسـيان، ولم تكـن قـادرة عـلى إخراجـه مـن قلبهـا، لكنهـا اعتـادت عـلى إحسـاس جديـد، الغضـب هـو مـا كان يسـكنها الآن، لأنهـا تسـمح لـه حتـى وهـو غائـب، بصبـغ حياتهـا بلـون البـؤس، وطعـم اليـأس، غضـب منـه، لأنـه يرفـض أن يغادرهـا، وغضـب مـن نفسـها، لأنهـا لم تعتـد ضعفهـا، ولم تتقبلـه، لكنهـا رغـم ذلـك وقفـت وهـا هـي تحـاول المسـير بخطـوات متثاقلـة، حزينـة، مجروحـة، لكنهـا تحـاول، هـذا كل مـا كانـت قـادرة عليـه اليـوم، والغـد مـازال بعيـدا، بطـول أيامهـا التـي تجـر حبهـا المذبـوح، وخيبتهـا المسـتمرة، لكنهـا واثقـة موقنـة أنهـا سـتصل إلى النسـيان، وستسـتعيد قوتهـا مـن جديـد تناشـد نفسـها لعلهـا ترتـاح

يقولون أنك بخير

أحقا أنت بخير

أتعرف الراحة بدوني

ألا يجافيك النوم ليلا

ألا يسكنك الحزن دوما

إن كان بك كل ذلك

فحالي مثل حالك

إن كنت بخير رغم ذلك

فأنا بخير كذلك

الفصل الخامس: الوقوع في الفخ

توجد في حياة الإنسان لحظة غريبة لايعرف كيف يفسرها ولايدرك سرها لكنها تصنع كل شيء في حياته القادمة

واسيني الأعرج (كاتب روائي جزائري)

غيداء

عُدت بعد أيام إلى البيت وأنا أواصل التمثيلية، ولعب الدور الذي رسمته أنت لي، دور المرأة الخاضعة حد الذل، العاشقة حد الموت، الراضية حد الهوان، وكنت أنت مصدقا، مستأمنا، غير مشككٍ وغير مدرك للغضب الذي كان يعتمل بداخلي، والقدرة الهائلة التي كنت أحتاجها للسيطرة عليه، كان أصعب ما في الأمر أن أبدو أمامك تلك التي كنتها منذ عرفتك، بينما الذي حدث ليلتها، أنني ما عدت غيداء العاشقة، إنما كنت الحبيبة المخدوعة والزوجة المنبوذة، ولا أصعب على امرأة من شعورها بالنبذ من زوجها، الرجل الذي عشقته وسلمت له مقاليد حياتها، وأفرغت له قلبها ليسكنه وحده دون أن يزاحمه أحد في براحه، كنت أريد أن أوجعك كما أوجعتني، أن أقهرك كما قهرتني، لكنني كنت أدرك أن الفرق بيني وبينك كبير، فشتان بين قلبي الذي هام بك وبين قلبك الذي لم يفتح أبوابه لي يوما، شتان بين من دخل الصفقة مراهنا بقلبه وعمره وبين من دخلها كشريك فخري له الفائدة كلها ولا يتحمل شيئا من الخسارة، وقد أدركت أنا حتى لو متأخرة أن الصفقة خاسرة، لكنني أحجمت عن إخبارك، كنت أبحث عن حل أو ثغرة تجعل منك خاسرا مثلي، حتى لو اختلفت الخسارة، فقد عرفت أنا ما خسرته معك، وأردت أن أسلب منك ما يوجعك وتكسرك خسارته.

إلى أن كان ذلك اليوم الموعود، الذي جئتني فيه طالبا بعض السيولة، تمثل دور العاشق مستعدا لمراضاتي وأمعنت أنا في التدلل أرى إلى أي حد

قـد يوصلـك طمعـك، وأدركـت أن لا شيء أحـب إليـك في هـذه الدنيـا مـن المـال، اخـترت أهـون شيء لتسـكنه قلبـك، رافضـا ملـذات الحيـاة الأخـرى متشـبثا فقـط بالمـادة التـي أضاعـت إنسـانيتك، وعرفـت أنـا أنـه لـن يكـسرك إلا المـال الـذي تزوجتنـي مـن أجلـه، ورضيـت أن تعيـش حياتـك في دور لم يخلـق لـك فقـط لـكي تسـلبني مـالي، فقـررت أن أوجعـك بـه.

دخلـت المنـزل أيامـا بعدهـا، تعلمنـي أن حديثـا وصلـك أن أخـوالي الثلاثـة قـد دخلـوا في مـشروع العمـر الـذي سـيرفعهم إلى عـالم آخـر مـن الرفاهيـة والغنـى، تسـتقصي منـي تفاصيـلا أشـبع بهـا فضولـك، فأعطيتـك منهـا مـا أطـار عقلـك، وجمـح بخيالـك فـأردت مشـاركتهم وطلبـت منـي أن أقنعهـم بذلـك، فوعدتـك بالمحاولـة، لكننـي لم أضمـن لـك شـيئا، فالمـشروع كان عائليـا، وأخـوالي يرفضـون مشـاركة الغريـب معهـم، رحـت تقنعنـي أنـك لم تعـد غريبا أنـت زوج ابنتهـم وقـد أصبحـت فـردا منهـم.

تلـك الأيـام كانـت أصعـب مـا مـرّ عـليّ في حيـاتي كلهـا، أصعـب حتـى مـن اليـوم الـذي جئتنـي فيـه سـكرانا وألقيـت عـليّ بقنبلتـك التـي انفجـرت داخـل قلبـي، لقـد تحولـت لعاشـق يحـاول إرضـائي بشـتى الطـرق فكنـت تتصـل في اليـوم أكـثر مـن مـرة، وكنـت تأخـذني في أحضانـك وتمعـن في تدليـلي، وفي الليـالي الظلـماء كنـت أكتـم نحيـب قلبـي وأنـت تمثـل دور الـزوج المحـب، بينـما أتمـرغ أنـا محاولـة مـداراة تخبطـي في إثـم استسـلامي لـك، فقـط حتـى لا أظهـر لـك قـرفي منـك، ومـن نفاقـك وإذلالـك لنفسـك كل هـذا الإذلال، مقابـل حفنـة مـال، كل يـوم وكل ليلـة كنـت تسـقط مـن عينـيّ أكثر وأنـا أدرك أي نـوع مـن الرجـال ذاك الـذي تزوجتـه، أنـك لم تكـن تحمـل مـن الرجولـة إلا

الاسـم، تفتقـد للشـهامة والكبريـاء، منعـدم الكرامـة، بائـس الأهـداف.

كنـت تأخـذني كل يـوم لزيـارة خـال مـن أخـوالي لأحـاول إقناعهـم حتـى يرضوا بـك شريـكا معهـم، وفي كل مـرة كنـا نعـود خائبـين بعـد رفضهـم، ردهـم كان أنهـم ليسـوا بحاجـة لشريـك، وأن المـشروع عائـلي.

ذات يـوم ثـار غضبـك وأنـت تشـتكي إقصاءهـم لـك وعـدم اعتبـارك فـردا مـن العائلـة، وبعـد أن هـدأت رحـت تطالبنـي بالمحاولـة مـن جديـد، المـشروع كان مغريـا جـدا، وفوائـده مضمونـة، كنـت مسـتعدا لفعـل أي شيء مقابـل الدخـول معهـم كشريـك والاسـتفادة مـن تلـك الصفقـة التـي أسـميتها صفقـة العمـر، ورفضهـم المسـتمر جعـل أعصابـك تتلـف وكأن الرفـض والضغـط جعـلاك تسـتوي عـلى نـار هادئـة لتقبـل أي اقـتراح منهـم في سـبيل القبـول بـك كشريـك، وأخذتنـي مـن جديـد واجتمعنـا بأخـوالي لكـن الـرد كان دائمـا (المـشروع عائـلي)

وكان توسلك وحججك مثيرة للشفقة:

ـ لكننـي أصبحـت واحـدا مـن العائلـة، يؤلمنـي جـدا أنكـم مازلتـم تعتبروننـي غريبـا وأنـا زوج ابنتكـم

رد عليـك أكـبر أخـوالي في وقـاره وصوتـه الجهـوري الـذي يلقـي الرهبـة عـلى كل مـن يحدثـه، بثقـة مـن خـبر السـوق وعـالم التجـارة وأنـواع الرجـال وأشـباههم:

ـ أنـت فـرد مـن العائلـة منـذ تزوجـت ابنتنـا لكـن الأمـر تجـارة والتجـارة لا تحسـب بالعاطفـة، وإلا لمـا كنـا وصلنـا إلى مـا وصلنـا إليـه اليـوم

صمت قليلا يناظرك في صمتك وحيرتك ثم أردف قائلا:

ـ هب أنك بعد سنوات انفصلت أنت وغيداء، وكانت المشاكل بينكما كبيرة لدرجة يصعب حلها، فكيف سنستلك من مشروعنا بعد أن تتوغل فيه.

انتفضت أنت يومها قائلا بتمثيل تستحق عليه جائزة الأوسكار:

ـ هذا لن يحدث أبدا، أنا أعشق غيداء ولا يمكنني العيش بدونها

كتمت يومها شهقة ساخرة موجعة، حتى كدت أغص بها وسمعت خالي الأوسط يأخذ الكلمة ليجيبك:

ـ أنت تتحدث بالمشاعر والتجارة ليس فيها شيء من هذا، الحب يمكن أن يموت، والطلاق قد يحدث حتى بين عاشقين، وقد تنتقم منها برفضك الخروج من المشروع وخلقك لمشاكل نحن في غنى عنها

افتقدت أنت يومها كلماتك المقنعة للحظات، لكنك استعدتها محاولا كسب المعركة التي دخلتها عازما على الفوز بها:

ـ ما بيني وبين غيداء أكبر بكثير مما تقول، إنها زوجتي وتوأم روحي ولا شيء في الدنيا قد يفرقنا أيا كان

كنت أسمعك مستميتا في الدفاع عن حبنا المزعوم، وأنا أدرك أي حقارة وصلتها لتكذب بهذه الجرأة، ما ضرك لو أحببتني صدقا، أكان يصعب عليك أن تكون إنسانا يعطي حبا ويأخذ عشقا، أوصلت بك أطماعك أن أعمت قلبك وما تركت فيه إلا الدناءة.

أجابك خالي الأصغر:

ـ لو كانت ابنة شقيقتي من ستشاركنا لربما تقبلنا الأمر ففي النهاية لنا كلمتنا عليها، ونستطيع أن نشتري نصيبك إذا اختلفتما ونحن واثقين من أنها ستمضي عقد البيع دون مشاكل، تستعيد أنت حقك، ويبقى

المشروع لنا، لكن أنت يمكن أن تتعنت إذا أصابتك حمى الانتقام المسعورة وستدخلنا في متاهات نحن في غنى عنها

وكأن ضوءا التمع في عينيك لحظتها غير مصدق أن بابا فتح لك لتقفز عليه مؤكدا:

ـ إذن نجعل الشراكة باسمها، ليس بيني وبين غيداء فرق نحن واحد

ـ أأنت متأكد؟

كان ذلك صوت أكبر أخوالي يسألك، ورحت تجيبه مؤكدا.

أخذ أخوالي بعض الدقائق يفكرون فيها، ثم أعلنوا أن الأمر فيه مخاطرة، ورحت تناقش وتقنع، وتتكلم طويلا حتى أصابني القرف من كذبك ونفاقك، أردت أن أنصرف لكنني أمسكت نفسي حتى تنتهي التمثيلية، وقد كان بأن أعلن أخوالي موافقتهم على أن تكون الشراكة معهم باسمي. عدنا إلى بيتنا وأنت في قمة سعادتك وكأنك ربحت الجائزة الكبرى، بينما كان الأمر صعبا جدا بالنسبة لي أن أرسم زيفا مجاراتي لسعادتك لكنني نجحت في ذلك.

لحسن حظي انشغلت بعدها أنت في استخراج الوثائق والركض هنا وهناك من أجل الحصول على قرض من البنك باسمي، لكن البنك رفض لأنه يحتاج إلى ضمان نقدمه في حالة استحالة الدفع وتسديد القرض، فعرضت أنت نفسك ضامنا لي وقدمت مطعمك وأصبح المطعم مرهونا كضمان للقرض الذي أخذ باسمي، واستطعت أن أتنفس بعيدا عنك وعن دناءتك أثناء ركضك وانشغالك، لكنك كنت تتذكر وتعود إليّ لتطمئن أنني العاشقة المجنونة التي مازالت على العهد، وكان عليّ أن ألعب الدور

الأهـم في اللعبـة، فأتقمـص مـن جديـد دور المـرأة العاشـقة، التـي لا تـرى في دنياهـا غـيرك، ولا يهمهـا في الكـون أحـد سـواك، ولا تسـعى إلا لتحقيـق مصلحتـك، وكنـت أقنعـك بذلـك مكرهـة مخفيـة ألمـي وقـرفي فتطمـئن وتمـضي للركـض وراء صفقتـك.

مـرت بعدهـا أيـام، وطمعـك في الربـح الكثـير، الـذي سـيعود عليـك مـن هـذا المـشروع الضخـم يكـبر ويزيـد، خاصـة بعـد أن تأكـدت مـن أن أخـوالي شرعـوا فعـلا في إجراءاتـه، وآمنـت أنـت أن مـا يفعلونـه دليـل عـلى ثقتهـم في هـذا المـشروع، وإلا مـا كانـوا خاطـروا بأغلـب ثروتهـم، وقـد عـززت أنـا ثقتـك في أننـي أنـا ضمانـك في حقـك، لأننـي مازلـت تلـك العاشـقة التـي رضيـت بسـجن عبوديتـك، دفعنـا لأخـوالي المـال الـذي اسـتلمناه مـن البنـك كقـرض وأضفـت عليـه رصيـدك في البنـك وأضفـت عليـه أنـا مبلغـا مهـما وتـم إمضـاء العقـود، وأصبحنـا شريكـين في مـشروع العمـر، أنـا بالاسـم فقـط، بينـما بـدأت أنـت في تحضـير نفسـك لاسـتلام منصبـك في المـشروع ومهامـك الجديـدة.

شيماء

كانـت الشـيماء تجلـس أمـام وكيـل الجمهوريـة، تقـص عليـه التفاصيـل كاملـة، منـذ بدايـة التحـرش بهـا، إلى غايـة الاتفـاق، مـرورا باكتشـافها تحـرش مديرهـا ببنـات المدرسـة، في تلـك الأثنـاء مـرَّ عليهـا المديـر رفقـة اثنـان مـن عنـاصر الضبطيـة القضائيـة، نظر إليها شـزرا وعينـاه تتوعدانها بالانتقـام منها شر انتقام أمـام السـيد وكيـل الجمهوريـة وعنـد سـماعه، أنكـر كل شيء وادعـى الـبراءة، بـل اختلـق حتـى أنهـا هـي مـن كانـت تحـاول التحـرش بـه، لأنهـا أعجبـت بـه وهـو مـن كان يصدهـا، وأنهـا تعـاني من خلـل نفسي، لكـن لطيبة قلبـه ومراعاة لظروفهـا الخاصـة، وعلمـه أنهـا لـن تجـد وظيفـة في مـكان آخـر، لم يطردهـا.

ـ لقـد رأفـت بحالهـا، وبشـكلها المقـرف، لكـن هـذا هـو جـزائي، كان يجـدر بي طردهـا واتخـاذ الإجـراءات الردعيـة ضدهـا عندمـا اكتشـفت هوسـها بي

سأله وكيل الجمهورية مرة أخرى:

ـ ما ردك على الوقائع المنسوبة إليك؟

فأجاب واثقا:

ـ إنها مجنونة معقدة، ليس لديها أي دليل، سوى تخاريف وادعاءات

ضغـط السـيد وكيـل الجمهوريـة عـلى زر عـلى جهـاز " الكمبيوتـر " الـذي كان بجانبـه، ثـم أداره إليـه ليسـمع الرجـل تفاصيـل المحادثـة التـي دارت بينـه وبـين " الشـمطاء " ويتعـرف عـلى صوتـه وصوتهـا ويـرى وجهـه يمـلأ شاشـة الجهـاز، فينفجـر قائـلا:

ـ مستحيل، لقد فتشتها

فيستغل وكيل الجمهورية الجملة، ويملي على الكاتب ما يلي:

ـ وقد اعترف المتهم بالجرم المنسوب إليه، وصرح أنه فتش الشاكية قبل المحادثة

صرخ الرجل مذعورا وقد اتسعت عيناه من فرط المفاجأة:

ـ أنا لم أعترف بشيء

مدّ وكيل الجمهورية أصابعه لأزرار " الكمبيوتر "، وبدأ يضغط مرة بعد أخرى، ليظهر الفيديو في كل مرة، وهو يقول:

ـ لقد نشرت الآنسة شيماء الفيديو على مواقع التواصل الاجتماعي، قبل تقدمها بالشكوى، وطلبت من كل من يرى الفيديو أن ينشره، لأنها ذاهبة للتقدم بالشكوى وذلك لدعمها، مواقع التواصل الاجتماعي تضج الآن بهذا الفيديو، وقد تم نشره ملايين المرات عبر العالم، القضية أصبحت قضية رأي عام، والاهتمام بها من أعلى المستويات، لذا أنصحك ألا تصعب الأمر على نفسك، التهمة ثابتة عليك، وإنكارك لن يزيد الطين إلا بلة، كما أن هناك أمر بعرض الطالبات على أطباء مختصين، استعدادا لسماعهن من طرفنا، بحضور مترجم متخصص في لغة الصم البكم، وأهل الطالبات كلهم واقفون بالخارج، استعدادا لتقديم شكوى ضدك، فاختر أنت طريقك، اعترف، فينتهي الأمر بأقل الخسائر عليك، أو أنكر واجعل القضية تكبر، والحراك الشعبي ضدك يكبر مطالبا بإعدامك

احتقن وجه الرجل وهو يسمع هذه الكلمات، وارتعب وهو يتصور مصيره، يتخيل حبل الإعدام ملفوفا على رقبته، أصيب بالذعر وسكنه الخوف، هكذا هم الجبناء لا يتصنعون القوة إلا مع الضعفاء، وراء أبواب مغلقة بعيدا عن ضوء الشمس.

سمع صوت وكيل الجمهورية يؤكد له:

ـ يمكـن أن أطلـق سراحـك بـكل سـهولة، التسـجيل ليـس إثباتـا يأخـذ بـه القانـون، لكـن النـاس التـي تنتظـرك بالخـارج سـتأكلك حيـا، ولا أحـد سـيمكنه إنقـاذك مـن غضبهـم وسـخطهم

وقـف السـيد وكيـل الجمهورية مقتربا مـن نافذة المكتـب وشرع دفتها ليتسرب صـوت الغاضبـين إلى المكتـب فيسـمعه الرجـل الـذي اهتـز خوفـا وهلعـا. فقـد المجـرم كلماتـه التـي غادرتـه تاركـة إيـاه في صمـت الارتبـاك وانهـار باكيا مرتجفـا، بعدهـا اعـترف بـكل شيء، بـكل التفاصيـل حتـى التـي لم تطلـب منـه، بـل حتـى مـا سـبق تعيينـه في تلـك المدرسـة التـي قابـل فيهـا "الشـمطاء"، وكأنـه كان يهـذي فـصرح بماضيـه القـذر وأفعالـه الشـنيعة.

اعـترف بأنــه في كل مدرســة ترأســها، كان يمــارس شــذوذه عــلى تلميــذات المدرسـة، لكنـه كان يتوقـف قبـل أن يفتضـح أمـره، ليبـدأ مـع تلميـذة أخـرى، وأحيانـا كان يتوقـف لظـروف نقلـه إلى مدرسـة جديـدة، كان ضغـط وكيـل الجمهوريـة عليـه وهـو يسـأله عـن التفاصيـل عارضـا عليـه الفيديـو الـذي سـجلته الشـيماء يزيـد في توتـره، وتفقـده عقلـه التعليقـات التـي يقرأهـا عليـه مـن ردود النـاس عـلى مواقـع التواصـل مطالبـين بإعدامـه في السـاحات العامـة، أو تقطيـع جسـده قطعـة، قطعـة وهـو حـي، أو جلـده حتـى المـوت وعرضـه عـلى النـاس لـيراه العـالم ويكـون عـبرة لمـن لا يعتـبر، أدرك أخـيرا أنـه دخـل الجحيـم بقدميـه عـلى يـد مـلاك في صـورة شـيطان يدعـى شـيماء، كانـت شـيماء حتفـه وهزيمتـه.

وحتـى لـو لم يتـم إعدامـه، فالتعليـق الأخـير الـذي قرأه عليـه وكيـل الجمهورية

جعلـه يدخـل في حالـة مـن الرعـب زاغـت لهـا عينيـه وهـو يسـمعه يقـول (بل اتركـوه حيـا وألقـوا بـه في السـجن مـع المجرمـين وأعلموهـم أنـه مغتصـب أطفـال، دعـوا المجرمـين يغتصبونـه كل ليلـة ليحيلـوا حياتـه جحيـما وهـم يعلمونـه وحشـية التعـرض للتحـرش والاغتصـاب).

حوراء

دخلت حوراء أحد المطاعم مع رفيقتها الجديدة في العمل، والتي أصرت عليها حتى ترافقها من أجل الغداء، ولم تجد بدا من الموافقة أمام إلحاحها، لتقف مرة واحدة، وسمعها يصطدم بضحكته التي تميزها من كل ضحكات العالم، التفتت بتأني، آملة أن يكذبها حدسها هذه المرة، لكنها وجدته هناك يجلس برفقة مجموعة من أصدقائه، رجلان كان هو ثالثهما، وثلاث نساء، ولم يكن الأمر يحتاج إلى الذكاء لتدرك أن المرأة التي تجلس بجانبه، وتكاد تلتهم بعينيها ضحكته، هي رفيقته، انقبض قلبها وهي تدرك أنه وبكل هذه البساطة، استبدلها بامرأة جديدة، أحست بوجع رهيب يعتصر ذلك الخافق بجنون محاولا كسر قضبان صدرها، هكذا بكل بساطة، استمر في حياته، كأنها لم تمر يوما منها لتغير مسارها، وكأن الذي حدث بينهما لم يحدث، إلا في مخيلتها هي، انتبهت رفيقتها لانقباض ملامح وجهها وشحوبه، أمسكتها من ذراعها تهزها وهي تسألها:

ـ ما بك حوراء؟ ما الذي حدث لك فجأة؟

اقتلعت نظراتها المتعلقة بوجهه بصعوبة بالغة، وهي تجيب صديقتها:

ـ لا شيء

عادت مرغمة للنظر إليه، غير قادرة على مقاومة هذه القوة التي تجذبها نحوه، لتجده قد رفع رأسه باتجاهها وينظر إليها هو الآخر، وقد توقفت ضحكته وكسا وجهه ذهول غريب، بينما رأت انكسارا غريبا في عينيه، أو ربما قد تخيلته أو تمنته، تعلقت أعينهما للحظات بدت كأنها

دهـرا، قالـت فيهـا العيـون الكثـير، الكثـير عـن الشـوق الـذي يضنـي القلـوب:

يضنيني شوقي إليك

فيخيل إليّ أني أموت

وأنت بعيد عن عينيّ

وأني غريق يفقد أنفاسه

في موج عينيك

وأضحى يعاند الموت

عله يحظى بلحظ جفنيك

وها هو الموعود يحدث

فلمَ الشوق لا يستكين

ولمَ الأنفاس ترحل عني

لم يكسرني حضورك

ومازال يأسرني الأنين

انتبهـت عـلى وقوفـه وهـو مـازال ينظـر إليهـا، كأنـه ينـوي القـدوم ناحيتهـا، فاجتثـت نظراتهـا المزروعـة بعينيـه، واسـتدارت إلى رفيقتهـا التـي كانـت تنقـل نظراتهـا بينهـا وبينـه، قائلـة:

ـ المكان لا يناسبني هنا

ثم خرجت وهي ترفع رأسـها في شـموخ، محاولة التماسك، حتى لا تسقط أمامه، بينـما تتبعهـا رفيقتهـا دون أن تفهـم هذا الذي حـدث لتوه، وحال قلبها ينشـد:

أخشى أن يئن حنيني أمامك

فتعرف ما فعل بي بعدك

أخاف أن يسقط مني كبريائي في حضورك

فتتهاوى كل أشهر شموخي في غيابك

ارحل، ارحل ولا تعد

حتى أبقى أنا، أنا

بهامتي، بشموخي، بكبريائي

سقط هو على الكرسي، وهو يراها ترحل، بينما يطالعه رفقاؤه، رفع يده يتخلل شعره بأصابع يده المرتجفة، لا يسمع صوت أصدقائه، رغم أنه يرى شفاههم تتحرك، وهم يوجهون كلامهم إليه، لم يعد العالم حوله يعنيه منذ رآها تدخل المحل، وها هو يسقط في هوة الألم من جديد برؤيتها تستدير عنه مغادرة، كأنها تغادره اليوم وليس منذ أشهر خلت. لماذا يشتد الوجع بقلبه كأنه لم يسعَ للشفاء منها منذ رحيلها عن حياته؟ لماذا تسكنه هكذا؟ بوجعها، بكبريائها، رافضة الرحيل عن قلبه، وكأنها تعاقبه حتى وهي بعيدة، تذكر جملتها ذات يوم في أحد حواراتهما المجنونة:

(أنا امرأة لست ككل النساء، من تعلق بي سكنتُه إلى آخر أيامه، يمكن أن أكون وجعه الدائم، ويمكن أن أكون ترياقه الشافي، على هذا الرجل أن يختار، الوجع أم الترياق)

ضحك يومها منتشيا وهو يجيب:

(أنا رجل استأصل مبعث الوجع بداخله منذ زمن طويل، لا شيء في العالم، صار لديه القدرة على إيلامي)

فتجيبه واثقة رافعة رأسها حد السماء كأنها تناطح النجوم لتترك لها المكان:

(قد يفاجئك انكسار غرورك يوما أمام امرأة جعلت سلاحها الكبرياء، فلا تستهن بهكذا سلاح)

لم يكن يعلم أنه وقع في حب ساحرة، ألقت عليه تعويذة الوجع التي لم يشفَ منها، رغم كل جهوده، حتى استعصى على كل أطباء العالم معالجته من هذا الورم.

وقف بصعوبة، يتجه إلى الخارج مغيبا، غير مبالٍ بالأصوات التي تناديه، كل الأصوات بعدها أصبحت صماء، فقط صوتها من يغرد بداخله، صوت ضحكاتها، صوت كبريائها، صوت لومها

(لو أنك أحببت، لو أنك أحببت) لو تعلم أنه أحب وعشق، وهام فتاه في صحراء هجرها، وأصابه الوله بعدها، وها هو يصل إلى الجنون، ولا قبيلة ستعيد إليه حبيبته، لو تدرك أنه ابتلي بوجعها وكبريائها فزاره الوجع رافضا مغادرته وانكسرت كبرياؤه هو، تائه هو موجوع، عاجز يصارع عشقها، ويعلم أنه بدونها هالك لا محالة.

دخل عالم الصمت ويحدث أن يصمت فيك الصراخ من شدة الوجع فتختار النأي بحزنك عن العالمين، ويحدث أن تغادرك الكلمات وتكتشف أن قاموسك فقير أمام كِبَرِ المصيبة، ويحدث أن تضيق بالظلمة فتصرخ روحك أيا زمن العتمة أين النور، أين الضوء فيك، أين وجهك أين الحبور، لكن صدى صراخك لا يُسمِعُ سواك فتسقط في الهوة أكثر مستسلما للظلام.

تؤلمه ذكراها، تعود به إلى يوم اعترف لنفسه بعد حادثة المستشفى، أنه

وقـع في الحـب، سـأل نفسـه يومهـا أتـراه وقـع في الأسر؟ أم أنـه شـفي أخـيرا مـن عدائـه المعـروف لصنـف النسـاء؟ تحسـنت علاقتـه بهـا بعدهـا رغـم تخبطـه، ورغـم عـدم بـوح أحدهـما بمشـاعره للآخـر، ورغـم اسـتمرار رفضـه التسـليم بأنهـا يومـا سـتكون جـزءًا مـن حياتـه، لكـن مقاومتـه كانـت تضعـف، وتتـلاشى يومـا بعـد الآخـر، حتـى جـاء ذلـك اليـوم الـذي كانـت تحـاول فيـه اسـتفزازه كعادتهـا لتسـأله:

ـ لو تزوجت يوما كيف ستكون زوجتك؟

أجابهـا بـشرود وهـو يشـاهد في مخيلتـه شـكل المـرأة التـي يرغـب وعيـه ولاوعيـه بهـا:

ـ بيضـاء البـشرة، تبـدو رقيقـة وهادئـة، لكـن بداخلهـا طفلـة مشـاغبة، عيناهـا بهـا حـور فاتـن، بياضهـما شـديد البيـاض، وسـوادهما قاتـم، صوتهـا ناعـم، تحـاول جاهـدة أن تجعلـه حـادا حتـى لا تتهـم بإثـارة الفتنـة، لكنهـا لا تعلـم أنهـا هـي الفتنـة بعينهـا، كفيلـة بإنـارة الـدروب المظلمـة في روح رجـل مثـلي، وحدهـا يمكـن أن تهـدم هـذا المـاضي وتجعلنـي أحلـم بالمسـتقبل، وحدهـا جعلـت قلبـا مريضـا كقلبـي يشـفى مـن كوابيسـه ويحلـم كل ليلـة بهـا

انتبـه فجـأة عـلى عيونهـا المتسـعة، واسـتوعب أن مـا قالـه كان اعترافـا بالحب، فـرَّ سـاعتها بعـد أن انفجـر ضاحـكا، وهـو يحـاول إيهامهـا أنـه يمـزح، ولكنها لم تضحـك وهـي تعلـم يقينـا أنـه لم يكـن يمـزح، ويعـرف هـو أنـه لم يكـن جـادا في حياتـه أكـثر مـن هـذه اللحظـات التـي خانـه فيهـا إدراكـه.

بعدهـا اشـترى خاتمـا وهـو يمـر يومـا بمحـل مجوهـرات بالصدفـة، دخـل يتأمل ذلـك الخاتـم الـذي رآه لا يناسـب إلا رقـة يدهـا، ولم يسـتطع مقاومـة سـحر

هـذه الفكـرة، لم يسـتطع تركـه لامـرأة أخـرى لا تليـق بـه ولا يليـق بهـا، فاقتنـاه ووضعـه في جيبـه، ينظـر إليـه كل ليلـة، وهـو يـدرك أنـه لـن يقدمـه لهـا يومـا، لكنـه فوجـئ بنفسـه يهديهـا الخاتـم، ورفضـت هـي كعادتهـا، وألـح هـو كعادتـه، وزاد رفضهـا، بـل وغضبهـا وهـي تذكـره أنهـا لم تقبـل سـابقا لتقبـل اليـوم، فوجـد نفسـه يترجاهـا قبولـه عربـون حبـه، ويطلـب منها القبـول بـه زوجـا لهـا، ووافقـت هـي غـير مصدقـة، لكنهـا كانـت سـعيدة بقدر الحـب الكبـير في قلبهـا، والـذي ظنتـه مسـتحيلا، وهـا هـو يخذلهـا ويـؤذي قلبهـا الـذي احتضنـه، وعلمـه الحـب.

بعـد مـرور سـحر ووهـج اللحظـة بـدأ صراع قـوي بداخلـه، جـزء سـعيد بهـذا الارتبـاط، وجـزء يحـس أنـه تـورط بهـذا الوعـد، كان يحـس في قـرارة نفسـه، أنـه سـيأتي يـوم ويخذلهـا، لأن مـارده لـن يغـادره بهـذه السـهولة، كان يشـك أنـه ربمـا لـن يُتـم هـذه الخطبـة، أو ربمـا سـيوصلها إلى موعـد الـزواج ويخذلهـا، فتكـون الضربـة أقـسى، رغـم أنـه لم يكـن يريـد أذيتهـا وهـو يـدرك أنهـا تحمـل قلبـا يمكـن أن يحتويـه ويشـفي جروحـه الغائـرة، لكـن جـزءًا آخـر منـه، كان يريـد أن يصـدق أنـه شـفي عـلى يديهـا، وأنـه سـيمنحها السـعادة التـي تسـتحقها، لم يكـن يعـرف أنـه سـيخذلها فعـلا بـأسرع مـما توقـع، أسـابيع قليلـة فقـط، بعـد منحهـا خاتمـه ووعـده، والأدهـى، أنـه لم يكـن يعـرف، أنـه سـيخذل نفسـه أكـثر، وأن طعـم الخـذلان بمزيـج الشـوق والحنـين، طعـم أقـسى مـن الحميـم الـذي يمـزق الأمعـاء، وابتلاعـه أصعـب مـن ابتـلاع الزقـوم طعـام أهـل النـار، فالخـذلان كان يمـزق قلبـه وجوفـه وقـد بـات هـو بعدهـا لا محالـة مـن أصحـاب الجحيـم.

الفصل السادس: الانتقام

أحيانا لابدَّ أن ينفطر قلبك يا بنيّ حتى تزهر روحك

اليف شافاق (كاتبة روائية تركية)

غيداء

كانـت النـيران تسـتعر بداخـلي لكننـي كنـت أحـاول إخمادهـا حتـى لا يصلـك لهيبهـا الآن، النـار التـي أوقدتهـا أنـت بداخـلي يجـب أن تكـون أول مـن يحـترق بهـا، لـذا كان عـليّ الصـبر حتـى تسـتوي أنـت وتكـون جاهـزا لحفلـة الشـواء، والصـبر كان سـلاحي في هـذه المعركـة الموجعـة.

بينـما كنـت تنتظـر انتقالـك إلى عـالم أصحـاب الأعـمال، جاءتـك ورقـة لم تكـن تنتظرهـا، في أسـوأ كوابيسـك لم تتخيـل أن هـذا قـد يحـدث لـك، كنـت واثقـا لدرجـة كبـيرة جعلتنـي أنـا نفـسي أشـك في ذكائـك، أوصـل الغـرور بـك درجـة أن أعـماك؟ أم أننـي أجـدت الـدور ببراعـة؟ أم أنـه الطمـع بـكل بسـاطة يعمـي عيـون صاحبـه ويـودي بـه إلى التهلكـة؟

ورقـة دعـوى الخلـع التـي اسـتلمتها كانـت ضربـة موجعـة لغـرورك وطمعـك، وقـد تركـت أنـا المنـزل أخـيرا بعـد أن نجحـت خطتـي و نلـت مـرادي وغـيرت مفاتيـح المسـكن لأنـه كان لا يـزال ولحسـن الحـظ باسـم والـدتي.

ثـرت بعدهـا غـير مصـدق أنني تحـررت منـك، جئـت إلى بيتنا والغضـب يعمي بصيرتـك ولكنـك لم تجدنـا، كنـت أعلـم أن أول شيء سـتفعله هـو التهجـم عـلى امرأتـين ضعيفتـين تسـتقوي عليهـما أنـت برجولتـك الكاذبـة، ولذلـك أخذنـا احتياطاتنـا وتنقلنـا أنـا ووالـدتي إلى منـزل أكـبر أخـوالي، اتصلـت بي بعدهـا هاتفيـا وكنـت أنـا قـد حـضرت نفـسي لتلـك المكالمـة المصيريـة:

ـ نعم

ـ غيداء، أين أنت؟ ما هذا الهراء الذي وصلني منك؟

أجبتك أنا ببرود قد تحضرت له منذ اكتشافي لحقيقتك:

ـ وماذا وصلك؟

ـ دعوى طلاق، ما الذي تفعلينه غيداء؟ هل جننت؟

ابتسمت في داخلي وأنا أتلمس ضياعك وعدم تصديقك للأمر:

ـ تلك ليست دعوى طلاق حبيبي، إنما خلع

جاءني صوتك هادرا مساهما في كبر سعادتي:

ـ أين أنت غيداء؟ هل أجبرك أخوالك على هذا؟ ما الذي يحدث بربك أنا لا أفهم شيئا؟

ـ لم يجبرني أحد غيرك، أنت من فعلتها سامر، أنت من أرغمتني على الوصول بنا إلى هنا، أنت من قتلت بداخلي حبك، فتحمل اليوم نتائج فعلتك

صرخت بعدها وقد فقدت السيطرة على أعصابك:

ـ ما هذه الترهات التي تهذين بها، غيداء أنا زوجك، حبيبك، ما الذي أصابك؟

انفجرت ضاحكة ووصلتك ضحكتي الساخرة مع كلماتي القاتلة:

ـ لقد انقضى وقتك سامر وأنا استعدت أموالي، انتهت اللعبة.

هدرت بصوت غاضب لكنه لم يعد يخيفني ولا يثير فيّ أي شعور سوى القرف منك وربما الشفقة عليك، لقد كنت إنسانا مريضا بالنسبة لي، مستعدا لبيع قلبك وجسدك وحياتك مقابل حفنة مال

ـ لن تستطيعي التخلص مني بهذه السهولة غيداء، هل مللت اللعبة، لكنني أسكنك غيداء ولن تستطيعي التخلص مني، ستعودين ولن أرحمك، لن تتخلصي مني بهذه السهولة

سـكتتَ بعدهـا وأنـا أرفـض الخـوض معـك في غضبـك، ثـم أردفـت قائـلا وكأنـك شـممت أخـيرا رائحـة مـا يطبـخ وراء ظهـرك:

ـ ما الذي يحدث غيداء، ما الذي تخططين له أنت وعائلتك؟

صمتـتُ وأنـا لا أريـد أن أريحـك، أردتـك أن تسـتوي أمامـي عـلى نـار هادئـة، ألا يقـال أن الانتقـام طبـق يـؤكل بـاردا لكننـي كنـت ضـد هـذا، بالنسـبة لي الانتقـام طبـق يطبـخ عـلى نـار هادئـة، ويقـدم سـاخنا، حتـى يحـترق آكلـه، وأنـا كنـت أنـوي الاسـتمتاع وقـد صـبرت كل ذلـك الوقـت وآن وقـت المتعـة، جـاءني صوتـك غاضبـا وقـد فقـدت السـيطرة عـلى أعصابـك:

ـ لـن أرحمـك، لا أنـتِ ولا عائلتك المجنونة، سـأعرف مكانك لـن أرحمكم جميعا

ثـرت وهـددت لكـن بـدون فائـدة، مجـرد كلام، وذلـك أقـصى مـا كنـت تجيـده، ووصلتـك الأخبـار القاتلـة بعدهـا، بعـت أنـا نصيبـي في المـشروع الجديـد لأخـوالي، ولم يبـق شيء باسـمي، كل شيء عـاد باسـم والـدتي، وبمـا أن الأشـهر الثلاثـة لتسـديد القـرض قـد مـرت دون دفـع فقـد حـل وقـت الآداء، وبمـا أنـك كنـت الضامـن فالبنـك حجـز عـلى مطعمـك لبيعـه بالمـزاد العلنـي، والـذي اشـتراه شـقيق زوجـة خـالي، وطبعـا يمكنـك أن تسـتنتج أنـت الباقـي لتفهـم أنـك وقعـت في شرك طمعـك وخرجـت مـن هـذا الـزواج بغـرور مكسـور أعـادك لحجمـك الحقيقـي.

مـا لم تعرفـه أنـت هـو أننـي أعلمـت أخـوالي بمـا حـدث في تلـك الليلـة التـي جئتنـي فيهـا سـكرانا، ولم تعـرف كيـف اسـتطعت أنـا أن ألتـزم الصمـت وكيف واتتنـي القـدرة وأكملـت اللعبـة، أخـوالي كانـوا دائمـا رافضـين لعلاقتـي بـك، وكانـت تلـك فرصتهـم لإخراجـك مـن عالمـي وعالمهـم خاسـئا مطـرودا، لقـد

خرجـت خـاليَ الوفـاض، ليـس كـما دخلـت أول مـرة، فقـد بقيـت السـيارة ملـكا لـك، لكـن ذلـك لم يكـن كافيـا لترفـك الـذي اعتدتـه منـذ تزوجتنـي.

لم تكـن قـادرا عـلى اسـتيعاب، أنـك وقعـت في الفـخ بـكل تلـك السـذاجة، لكنـه غـرورك وثقتـك العميـاء في أنـك تملكتنـي عشـقا، فألبسـتني إلى الأبـد ذلا، ولم تـدرك أن الأسـير مهـما طـال أسره، يـوم يجـد نافـذة للحريـة، فإنـه أبـدا لا يخطئهـا، وأن المـرأة مهـما كان حجـم عشـقها، فـإن الخيانـة سـتقتل ذلـك العشـق يومـا لا محالـة، لقـد كنـت أسـيرتك وأدركـت أخـيرا أنـك جـلادي وأن الأسر لا محالـة قاتـلي ففككـت قيـودي ورحـت أحلـق بعيـدا عن سـجنك، أنت خنتنـي أبشـع خيانـة، ربمـا ليـس مـع امـرأة أخـرى، لكـن بينـك وبـين قلبـك لم تُسـكني هـذا القلـب يومـا، بينـما أوهمتنـي بذلـك غـدرا، خنـت ثقتـي بـك، خنـت حاجتـي إليـك، وتعلقـي بـك، وجعلتنـي فقـط مطيـة لمطامعـك، أنـت خنـت ثقتـي بـك وكـسرت بداخـلي روحـي التـي آمنـت بـك.

كنـت رجـلا لبـس ثـوب الغـدر والدنـاءة ونـسي أن الرجولـة عـزة وإبـاء، ارتضيـت لنفسـك أن تعيـش عـلى أنقـاض روح أنثـى وثقـت بـك فكسرتهـا وأوجعتهـا في حبهـا لـك، لكنـك كنـت جاهـلا عـن أن المـرأة قـد تغفـر للرجـل كل شيء إلا كـسرة الفـؤاد، لـذا كان كل مـا فعلتـه أنـا هـو جـبر شرخ قلبـي واسـتعادة كرامتـي، وفي النهايـة كنـت أنـت الأحمـق الـذي صـدق كذبتـه بـأن السـجين يمكـن أن يحـب سـجنه، لكننـي كـسرت القيـد وتخلصـت منـه.

أتذكـر يـوم قدمـت للمحكمـة كنـت أنـت واقفـا بانتظـاري بعـد أن أعجزتـك الحيلـة عـن الوصـول إليّ، لكـن الصدمـة سـمرتك مكانـك وأنـت تـراني أتقـدم وسـط إحـدى عـشر شـابا مـن أبنـاء أخـوالي يحيطـون بي ويتقدمهـم خـالي

الأكبر، كلهم ينظرون إليك نظرات مفترسة، ألقت الرعب بداخلك وقد رأيته ينتشر على ساحة وجهك، تقدم خالي منك وقرب وجهه منك فعدت بخطواتك إلى الوراء مجفلا، وسمعته يقول لك والصمت أصبح رفيق خوفك (أترى هؤلاء الرجال الذين يحيطون بها، كل واحد منهم متأهب لا ينتظر إلا سماع أمر مني حتى ينقض عليك، إذا كنت لم تتعلم الدرس بعد، فيسعدني أن ألقنك درسا أقسى وأوضح، لو سمعت فقط أنك اتصلت بها أو رأتك مجرد لمحة في محيط تواجدها فلا تلم إلا نفسك، نحن رجال نموت من أجل نسائنا ولا نبالي بالسجن حتى، ونقدم الروح من أجل صون أعراضنا، نحن رجال يتجنب الذكي مجابهتهم، وأتمنى أن يكون بك بعض الذكاء يجعلك تفهم مغزى هذا)

تركك خالي وأكمل المسير إلى داخل صالة المحكمة، يتبعه الجيش وأنا أتوسطهم أعاين شحوب وجهك ونظراتك المرعوبة، وكلي فخر أنني أملك عائلة أستطيع أن أحتمي بها، وأدرك أن العائلة عزوة وسند، ولا غنى للمرأة عنها، وأتذكر مقولة المرأة التي تعرض لها الشاعر عمر بن أبي ربيعة في الحج، بعد أن كانت قد نهرته بقولها (إليك عني فإني في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة) لكنه لم يتعظ، فلما جاءت في الثالثة مع أخيها لم يتعرض لها خوفا من شقيقها فضحكت وقالت قولتها التي بقيت بعدها (تعدو الكلاب على من لا أسد له، وتتقي صولة المستأسد الضاري) هكذا كان حالك تستقوي عليّ وترتعب من أخوالي وأبنائهم، كنت مجرد ذكر ارتدى خطئا ثوب الرجولة لكنه لم يعرف قدره ولم تستطع أكتافه حمله فسقط عنك ليكشف عورتك.

حصلـت أنـا بعدهـا عـلى حكـم الطـلاق خلعـا، ولم تعـرف أنـت يومـا سـبب كل مـا حـدث، ظننـت فقـط بغبائـك أننـي توقفـت عـن حبـك، وأن الفتـاة المدللـة ملـت مـن لعبتهـا، لكنـك لم تعـرف، أن الفتـاة المدللـة كـبرت ألـف جـرح، وخمسـين وجـع، بعـد الـذي فعلتـه بهـا، ومـا كان ذلـك كلـه إلا انتقـام عاشـقة مذبوحـة وثـأر لكرامـة زوجـة مغـدور بهـا.

قلـت لي يومـا في أحـد نقاشـاتنا القليلـة إن الأخطـاء اللغويـة للكاتـب لا تغتفر، أتذكـر هـذا القـول وأنـا أكتبـك، وهـا أنـا أقـول لـك اليـوم الأخطـاء الروحيـة للعاشـق لا تغتفـر، رغـم إدراكي أنـك لم تكـن يومـا عاشـقا لكنـك أوهمتنـي بذلـك، وجدتنـي ملطخـة بدمـاء حبـك يفـوح منـي عطـر الانتقـام، أنـا التـي طالمـا مـلأ عبـق الاستسـلام أماكـن تواجـدي معـك، هـا أنـا أسـعى لقتلـك بداخـلي بعـد أن زرعتـك في الـروح شـعار السـلام، هـا أنـت تعـود لمكانتـك الحقيقيـة نكـرة دخـل عـالم ملكـة لكنـه مـع الوقـت لم يجـد تمثيـل دور النبـلاء فانكشـف أمـره.

شيماء

عـادت "الشـيماء" إلى الحيـاة، عـادت إلى المدرسـة، لكـن آثـار مـا عاشـته في هـذه التجربـة الرهيبـة، لم ولـن تمحـى مـن ذاكرتهـا، فتيـات المدرسـة اللـواتي اتضح تعرضهـن للتحـرش عـلى يـد مديـر المدرسـة، تمـت متابعتهـن مـن طـرف أطبـاء نفسـانيين متخصصـين، ربمـا قـد يسـاعدوهن يومـا عـلى التغلـب عـلى مـا فعلـه هـذا الوحـش ببراءتهـن رغـم أن الآثـار لـن تمحـى كليـة، والـضرر سـيبقى عالقـا أبـد العمـر، تبـين مـن المتابعـة عـدة آثـار عنـد هـؤلاء الفتيـات لم ينتبـه لهـا أولياؤهـم، بعـض الفتيـات كـنّ تعانـين مـن السـلوك العـدواني وثـورات الغضـب غـير المـبرر، كان يمكـن لهـذا السـلوك أن يثـير التسـاؤل في ذهـن الأوليـاء فيتـم التوصـل إلى السـبب، ووقـف المتسـبب أبكـر لعـلّ الأضرار كانـت سـتكون أقـل لكـن لا أحـد انتبـه.

بعـض الأوليـاء صرحـوا أنهـم لاحظـوا عـلى بناتهـم أمـارات الرغبـة في تدمـير الـذات كجـرح النفـس، السـلوك السـلبي أو الانسـحابي، الحـزن والإحبـاط، لكنهـم لم يكترثـوا بالبحـث عـن الفهـم أو السـبب، أرجعـوا السـبب إلى كـون الفتيـات مصابـات بالصـم والبكـم فتعبيرهـم كان كـردة فعـل طبيبعيـة، الجهل أو اللامبـالاة قـد تكـون نتائجهـا وخيمـة، مـاذا لـو عـرض أحدهـم ابنتـه عـلى طبيـب نفـسي بمجـرد ظهـور تغـير في السـلوك؟ لمـاذا يعتقـد الكثـيرون أن الطبيـب النفـسي لا حاجـة لـه ولا لعلمـه؟ ألم يمـضي سـنوات طويلة في الدراسـة حتـى يتخـرج؟ أليـس طبيبـا؟ أم أنهـم يقـرون باللقـب وينكـرون المهنـة؟

بعـض الفتيـات كـنّ يظهـرن العواطـف بشـكل مفاجـئ، أو تعلقـا غـير طبيعـي

مفاجئ بأوليائهم، البعض الآخر تعرض للتبول الليلي، أو مص الأصبع، كان يجدر بهذه الإشارات أن تكون منبها على وجود الخطر، لكن الأولياء كانوا غائبين عن مراقبة بناتهم، ربما بالركض وراء لقمة العيش والاعتماد على أن المدرسة تربي وتنتبه وتحافظ عليهن، لكن الواقع أنه في هذا الزمن وفي كل مكان هناك شياطين مندسين بين البشر، يستغلون أول فرصة للانقضاض على فرائسهم وإشباع غرائزهم المريضة، لم يعد من المستساغ ولا من المسموح الغفلة عن طفلك، طفلك مسؤوليتك مادمت قد قررت المجازفة بإنجاب طفل في هذا الزمن العجيب، فعليك أن تحرص على أن تكون حاميه وحارسه، تتفقده وتهتم به وتراقب سلوكياته، تجعله صديقك وتكون موضع سره، حتى إذا ما اقترب من الخطر أو اقترب الخطر منه، كنت هنا لترده عنه قبل وقوع المحظور، التربية ليست أن تطعم الجسد وتدفع مصاريف الدراسة وتقنع نفسك أنك أديت واجبك تجاه ابنك أو ابنتك، التربية أن تطعم الروح قبل الجسد، أن تزرع في نفس ابنك الثقة والأمان، أن تغرس الحب والمودة، أن تملأ قلبه بحب الله، التربية هي أن تلقي بداخل طفلك بدور الأخلاق الطيبة والمبادئ الكريمة فتنبت لتصبح أشجارا وارفة يسير تحت ظلها عندما يكبر فتحميه من حر سوء الخلق إذا قابله في الطريق، التربية تختلف عن رعاية شؤون الطفل، التربية أن تزرع وتعطي بحب أكثر من مجرد التزام وواجب.

ما فائدة أن تتسارع العائلات لعلاج بناتهن اليوم، ألم يكن الأولى الحرص عليهن منذ البداية ومراقبتهن، أكان يجب الوصول إلى الكارثة حتى يستفيقوا، أكان يتحتم على البراءة أن تجرح حتى ينتبه للوجع؟ ولحسن

الحـظ أن شـيماء تنبهـت منـذ البدايـة برسـالة قدريـة وضعتهـا أمـام الأمـر الواقـع، لحسـن الحـظ أن المديـر بمجـرد تحويلـه للمدرسـة حـاول التحـرش بالشـيماء فافتضـح أمـره أمامهـا.

تـم تكريـم "شـيماء" في عـدة حصـص تلفزيونيـة، قصـت عليهـم كيـف أوقعـت بالرجـل الـذي فتشـها، عـن طريق كاميرا صغيرة على شـكل زر ملابـس، وجدتها بعـد بحـث مضـنٍ عـلى الانترنـت، علقتهـا عـلى معطفها والتـي لم ينتبه هـو لها.

ـ ألم تكوني خائفة؟

ـ تريديـن الحقيقـة، كنـت مرتعبـة مـن الداخـل، خشـيت أن يكتشـف الأمـر ولم أكـن أسـتطيع أن أتصـور كيـف سـتكون ردة فعلـه، والأهـم أن فشـل الخطـة، يعنـي اسـتمراره فيـما يفعلـه ببنـات المدرسـة.

ـ كيف سيطرت على خوفك إذن؟

سألتها المذيعة، فأجابتها شيماء بثقة وامتنان:

ـ اسـتطعت بفضـل اللـه أن أتحكـم في خـوفي، وأن أخفـي اضطـرابي، كنـت أدرك أنـه الحـل الوحيـد الـذي أملكـه ولا خيـار آخـر لي، آمنـت أن اللـه مـادام قـد وضعنـي هـذا الموضـع، فهـو سـيدبر لي الأمـر مـن عنـده، ولـن يتركنـي وحـدي.

سألتها المذيعة مرة أخرى في اهتمام وقد أعجبتها تلك الثقة بالله:

ـ لمـاذا قـررت نـشر التسـجيل عـلى مواقـع التواصـل الاجتماعـي؟ كان بإمكانـك الذهـاب بـه للعدالـة، هنـاك من يقول أنـك كنت تبتغين الشـهرة مـن وراء هذا

أجابت شيماء وقد ظهرت تقطيبة حاجبيها:

ـ عـالم اليـوم بـكل التكنولوجيـا التـي تتطـور يومـا بعـد يـوم أصبـح مخيفـا، هـذه التكنولوجيـا هـي سـلاح ذو حديـن، هنـاك مـن يسـتعملها ليشـتهر

حتـى بالتفاهـة، لكننـي والحمـد للـه لسـت منهـم، لقـد أجريـت بحثـا عـلى الانترنـت وعلمـت أن التسـجيل وحـده لم يكـن ليطيـح بالرجـل، لأنـه لم يكـن مرخصـا مـن الجهـات القضائيـة المختصـة، ذلـك مـا جعلنـي أفكـر في نـشره عـلى مواقـع التواصـل، والمطالبـة بدعـم النـاس قبـل التوجـه للتقـدم بالشـكوى، كل مـا فكـرت فيـه هـو كيفيـة تشـديد الحصـار عليـه حتـى لا يفلـت مـن العقـاب، عندمـا نـشرت الفيديـو كنـت أوجـه نـدائي للضمائـر الحيـة في مجتمعنـا، كنـت أسـتنجد بمـن يملـك شـيئا مـن الإنسـانية أن يقـف في صـف الـبراءة التـي انتهكهـا ذلـك الوحـش، والحقيقـة أننـي لم أتوقـع أنهـم كثـيرون، ولا أن الفيديـو سـيجوب العـالم في سـاعات قليلـة، أمـا مـن اتهمـوني بأننـي سـعيت إلى الشـهرة فسـامحهم اللـه، لقـد عشـت أيامـا عصيبـة وأنـا أتخبـط في معرفتـي بمـا يفعلـه ذلـك الوحـش وبـين بحثـي عـن حـل لإنقـاذ الفتيـات، إلى أن اهتديـت بفضـل اللـه إلى تلـك الفكـرة.

صمتت قليلا وقد فكت تقطيبة حاجبيها وظهرت ابتسامتها:

ـ ولكننـي فوجئـت بالـذي حـدث، رغـم الصـورة القاتمـة التـي يظهرهـا عالمنـا اليـوم، لكـن الخـير مـازال يسـكن القلـوب، أهـل الخـير مازالـوا موجوديـن في عالمنـا ينتظـرون فقـط فرصـة للظهـور، عـدد الأشـخاص الذيـن اسـتجابوا ونـشروا الفيديـو وشـاركوه كان يفـوق كل توقعـاتي.

الـذي حـدث بعدهـا أيضـا كان مفاجئـا لشـيماء، نظـرات النـاس إليهـا تحولـت، لم تعـد تـرى ذلـك النفـور والقـرف عـلى وجوههـم، أصبـح الكثـير منهـم يسـتوقفونها في الشـارع، رغبـة في التعـرف عليهـا، والإشـادة بمجهوداتهـا وجـمال روحهـا، تلـك الابتسـامة عـلى وجوههـم، وكأنهـم يـرون عارضـة أزيـاء

أو ممثلة سينمائية، بل وهناك من يستسمحها في أخذ صورة معها، حتى يضعها على صفحته في الفيسبوك أو الانستغرام، كل ذلك كان يبدو لها غريبا، لو أن أحدا أخبرها يوما أن الناس سيرغبون في الحديث معها فقط، لظنته مجنونا، فما بالك بأخذ صورة معها للتباهي بها أمام أصدقائهم، الناس لم يعودوا يرون بشاعتها، في النهاية طغى جمال روحها على قبح وجهها، حتى أن أحدهم أبدى رغبته في خطبتها، وقد كان أرملا وله بنتان، رفضت هي بلطف دون أن تجرحه، لكنها لم تستطع منع دهشتها وهي تفكر أن "الشمطاء" هناك من يرغب في الزواج منها، من كان يصدق ذلك، أخبرتها إحدى صديقاتها اللواتي اكتسبتهن حديثا، أن هناك رجل يرغب في التقدم إليها خاطبا، كان هذه المرة أعزبا، أصبح الأمر مسليا بالنسبة لها، ربما يوما ما ستفكر في الزواج، عندما تتصالح مع نفسها بشكل نهائي، لم تعد ترفضه كما كانت سابقا ولا تنفر منه، تدرك أنها يوما ما ربما ستلتقي بمن تشبه روحه روحها وساعتها لن تستطيع الرفض أو ربما سيمنعها هو من التمسك برفضها، وربما لا حتى لو لم يكتب لها الزواج فتلك ليست نهاية العالم بالنسبة لها.

اتصل بها طبيب مختص في عمليات التجميل، وأبدى رغبته في إجراء عمليات تجميل على وجهها دون مقابل، رفضت ولكنه ألح عليها، وأخذ منها وعدا أنها ستفكر في الموضوع، وأنه سيتكفل بالأمر متى ما شاءت، هي ترفض الأمر حاليا، لكنها قد تفكر يوما فيه، لا تعرف إجابة صادقة، لكنها اليوم سعيدة وغير مكترثة لاختلافها، أضحت تعلم أن اختلافها هو سر تميزها، هناك من يضع مقاييس للجمال، وهذه المقاييس تتغير من

زمـن لآخـر، لكـن مـن قـال أنهـا المقاييـس الصحيحـة مادامـت تتغـير بتغـير الأزمـان فهـي مقاييـس نسـبية، لـذا يكفـي أن تؤمـن هـي بجمالهـا وتصدقـه، غـير آبهـة بتلـك الصفـات التـي فرضـت في عقـول النـاس، اليـوم هـي تفـرض مقاييـس جـمال روحهـا والنـاس صدقـت عندمـا رأت، أصبحـت الشـيماء جميلـة بمقاييـس مختلفـة، ينعكـس جـمال روحهـا عـلى وجههـا وتبهـر لمعـة عينيهـا مـن ينظـر إليهـا.

حوراء

مـرت سـبعة أشـهر عـلى آخـر مـرة رأتـه فيهـا، لم يحـاول هو يومـا الاتصـال بها، وهـا هـي اليـوم تجـده يجلـس داخـل صالـة بيتهـا، رفقـة والدتهـا، يتجـاذب الحديـث معهـا وكأنـه أحـد أقاربهـا، عقـدت الصدمـة لسـانها أول مـا رأتـه، ثـم سـألت عـن سـبب تواجـده في بيتهـا، لـترد عليهـا والدتهـا تخبرهـا أنـه جاءهـا خاطبـا، اتسـعت عيناهـا دهشـة وهـي لا تصـدق مـا تـراه ولا ما تسـمعه، أبعد كل هـذا الوقـت جاءهـا بهـذه البسـاطة خاطبـا، كأن شـيئا لم يحـدث بينهـما، أبعـد كل هـذا العـذاب يدخـل بيتهـا، دون حتـى أن يأخـذ إذنـا منهـا، يسـامر أمهـا وكأنـه لم يتسـبب بجـرح مازال ينزف داخلها، انسـحبت والدتهـا إلى المطبخ بحجـة إحضـار قهـوة سـاخنة، وتركتهـما وحدهـما في الصالـة المفتـوح بابهـا. وقفت قبالته ترفض الجلوس وهي تبادره بالسؤال:

ـ ما الذي أخبرت به والدتي؟

رد بصـوت مـازح وبسـمة خفيفـة عـلى شـفتيه بـدت ـ رغـم جهـده في جعلهـا تبـدو واثقـة ـ مرتبكـة:

ـ بأني أعشق ابنتها وجئتها خاطبا طالبا ودها

ردت هي بنبرة ساخرة:

ـ الآن تذكـرت أنـك عاشـق، وكيـف تـرضى أن ترتبـط بامـرأة خائنـة؟ ألم تخبرهـا أن ابنتهـا خائنـة، بـل ألم تخبرهـا أنهـا هـي أيضـا خائنـة؟ بمـا أن كل النسـاء في نظـرك خائنـات.

انسحبت تلك البسمة من على محياه، لترتسم مكانها نظرة آسفة معتذرة

ـ لقد تأكدت من كلامك وعرفت أنني ظلمتك

انفجر غضبها وهي تسأله:

ـ الآن فقط، أين كنت طيلة الأشهر السابقة؟ لم تتنازل نفسك بالتكرم عليّ بتبيّن حقيقة الأمر

فرد محاولا التبرير بما لا يبرر، متأملا أن تغفر حتى لو لم تتفهم:

ـ بلى سألت بمجرد خروجك من عندي يومها، عندما أخبرتني أنني لو كنت أحببت لكنت سألت، لقد سألت لأنني ورغم أنه قد يبدو لك الأمر صعب التصديق إلا أنني أحببت، بعزة ربي وجلاله أقسم أنني أحببت وعشقت وتألمت وسألت، ولكنني لم أكن قادرا على مواجهتك، كنت أعرف أن ما حدث يمكن أن يتكرر في أية لحظة، وأن الشك الذي يسكنني سيدمر حياتي معك يوما لا محالة، كنت أدرك أن المشكل ليس في ما حدث، بل في ما يمكن أن يحدث لاحقا.

ارتفعت نبرة صوتها الغاضبة:

ـ وما الذي تغير اليوم؟ أنا مازلت أنا وأنت لا تزال أنت؟

سمعت نبرته المستجدية وهو يخبرها:

ـ أنا لم أعد أنا

نظرت إليه في تساؤل وهي لا تفهم ما يرمي إليه، عندما سمعته يضيف بنبرة هادئة:

ـ عندما كان عمري اثنا عشر عاما رأيت أقذر وأوجع مشهد يمكن للمرء أن يراه، كنت عائدا من المدرسة فتحت الباب ودخلت أبحث عن والدتي لكنني لم أجدها، صعدت إلى غرفتها أتبع صوت الصراخ العالي، لأجد بابها

مشرعا فدخلت ورأيت ما قضى على طفولتي وإنسانيتي بعدها

صمت وهو يغمض عينيه في وجع يصارع كي يخفيه عن عينيها ثم فتحهما مكملا حديثه الموجوع:

كانت والدتي تقف مواجهة لوالدي في ثياب تفضح أكثر مما تستر يقف أمامها رجل عاري الجسد كما ولدته أمه بينما والدي يمسك مسدسا في يده ويهددهما به، يتهمها أنها تخونه مع ذاك الواقف أمامها، بينما تحاول هي تهدئته واستجداءه حتى لا يتهور ويطلق النار عليهما، فجأة خبا صوت والدي ثم انفجر باكيا يصرخ بها.

(لقد أحببتك كما لم يحبك أحد، لم أبخل عليك بشيء، ما الذي فعلته لأستحق منك هذه الخيانة؟ لماذا لم تتمكني من حبي؟ ما الذي لم أقدمه لك حتى تبحثي عنه عند رجل آخر؟)

راحت هي تجيبه بصوت خفيض حتى لا تثير غضبه أكثر

(كانت غلطة، أنا أحبك أنت، اغفر لي وسامحني أنا أحبك وأريد أن أكون معك)

اقترب والدي منها ثم توقف سدد مسدسه باتجاه الرجل الآخر وهو يقول:

(إذن سأقتله هو الخائن)

لكن شهقة والدتي أعادته للوراء بخطوات مهزوزة وهو ينظر إليها في ألم تشنج له كل جسده

(أنت تحبينه هو أليس كذلك؟)

فتحت والدتي فمها لتجيبه لكنه صرخ بها:

(اصمتي، لا أريد أن اسمع كذبك أكثر)

عـم الصمـت المـكان فجـأة وأنـا أحـول نظـراتي المرتعبـة بينهـم دون أن يشـعر أحـد منهـم بوجـودي لفـرط مـا كانـت الصدمـة تغرقهـم والخـوف يلفهـم ثـم جـاء صـوت والـدي قاطعـا الصمـت، صـوت ينتحـب مـن غـير بـكاء، ينـوح مـن غـير نـواح، صـوت مقتـول قتلـه العشـق:

(مهـما فعلـت ومهـما أعطيـت لـن أنجـح يومـا في جعلـك تشـعرين بهـذا الفـؤاد المعـذب في حبـك، لـذا سـأمنحك آخـر مـا يمكننـي أن أقدمـه لـك، سـأمنحك ذنبـا يقـف بينـك وبـين أي رجـل آخـر بعـدي، فلتهنئـي بالحـب بعـدي إذا اسـتطعت أن تنـسي أنـك قتلتنـي)

رفـع مسدسـه في لمـح البـصر لتسـتقر الرصاصـة في جانـب رأسـه الأيمـن ويسـقط بعدهـا مضرجـا في دمائـه النافـرة بقـوة عـلى صرخـة والـدتي التـي انهـارت أمامـه تنتحـب رجـلا قتلتـه حبـا، وأنهـار أنـا في صمـت.

لم أسـتطع مـن يومهـا لا بـكاءه ولا أن أغفـر لـه ضعفـه، وكرهتهـا هـي ومعهـا صنـف النسـاء.

صمـت وهـي تنظـر إليـه غـير مصدقـة هـذا الـذي تسـمعه كانـت تعـرف الخطـوط العريضـة للقصـة لكـن سـماع تفاصيلهـا مـن فمـه ورؤيـة روحـه المعذبـة التـي يفتحهـا أمامهـا كان أكـبر مـن احتمالهـا، أضـاف في وجـع مكتـوم:

ـ رحلَـت بعدهـا بفضيحـة ألبسـتنيها أنـا الـذي لم يكـن لي في الأمـر لا ناقـة ولا جمـل، سـوى أننـي كنـت ابـن القاتلـة والمقتـول، أو الخائنـة والمغـدور، وأصبحـت أحمـل لقـب (ابـن العاهـرة) أخـذني جـدي لأعيـش معـه في مدينـة أخـرى بعيـدا عمـن كان يعـرف قصتـي لكـن عارهـا طـاردني أينـما رحلـت وحيثـما ارتحلـت، وصورتـه يسـتجدي حبهـا جعلتنـي أقسـم ألا اضعـف يومـا

بحب امرأة، وقد وفيت بقسمي إلى أن دخلت أنت عالمي يوما، فحنثت غير مخير بقسمي، وأنا أقع صريع هواك الذي قاومته بكل ما أوتيت من قوة لكنه غلبني وسكنني.

رأته يأخذ نفسا عميقا وسمعته يواصل:

ـ رؤيتك يومها مع غريمي تخرجين من الملهى الليلي أيقظت شياطيني التي عشت عمري أحاول دفنها والهروب منها، رأيت وجهها فيك يومها، ورأيت ضعفه فيّ، رأيت ما كرهته طوال عمري يتجسد أمامي أنا عاشق لامرأة خائنة، كما كان هو، أردت أن أغير التاريخ فأكون أنا القاتل وأنت المقتولة، لكنني أدركت أنني كنت المذبوح بخنجرها من يوم رأيتها، والجرح عاد للنزيف فقط، أدركت أنني لم أشف يوما لا من خيانتها ولا من ضعفه، وأنني من يوم رأيتهما وأنا غارق في الظلمة أتخبط.

ساد صمت طويل لا يجد هو ما يضيفه لقطع هذا الصمت ولا تجرؤ هي على الكلام بعد الذي سمعته منه، لكنه كان يدرك أنها فرصته الأخيرة، فإن صمت اليوم لن يتكلم بعدها، وإن لم يفرغ ما في جعبته فلن يرتاح فاستطرد قائلا بأمل يقاوم خوفه:

ـ لقد كنت أعالج عند طبيب نفسي طيلة هذه الأشهر، عندما سألت وأدركت أنني أضعت الأمل الوحيد الذي كان قادرا على شفائي، قررت أن أعالج وجعي و أن أنير الضوء في عتمة الماضي حتى أطرد أشباحي، قررت أن أواجه ضعفي، ألقيت بكل ما في جعبتي من شك ومرارة، فتحت جروحي عنده، وأخرجت منها القيء والدم الفاسد الذي تراكم من يومها، انتزعتُ مني تلك الروح الشريرة التي سكنتني لسنوات،

تصالحت مع نفسي ومع دنياي، ولكن مازال ينقصني أهم شيء لتكتمل دنياي الجديدة.

كانت تسمع والدهشة تملأها، لطالما حثته على الذهاب إلى طبيب نفسي، لكنه كان يرفض ذلك جملة وتفصيلا، كان يخبرها أنه لا يؤمن بخرافة أن تخبر شخصا تفاصيل حياتك، وتدفع له مالا مقابل الاستماع إليك وتشفى بعدها، لطالما أخبرها أن الأغبياء وحدهم، من يصدقون أنهم سيشفون بعد ذلك، كان يخبرها أنه يمقت هؤلاء الأطباء النفسانيين، ويدعوهم بالدجالين، سألته غير مصدقة:

ـ لكنك تكره الأطباء النفسانيين؟

أجابها وقد تحركت شفتاه في ابتسامة خفيفة:

ـ لم أجد حلا آخر، كنت أغرق في حقيقة أنني أموت بدونك، أردتك أن تغفري وتصدقي أنني أحببت، تذكرت حثك الدائم لي على العلاج، وأردت أن أجربه، وقد نجح الأمر، روحي لم تشفَ مما فعلته والدتي بي وبوالدي، ولا مما فعله هو بنفسه وبي، لكنني أعرف اليوم أن النساء لسن صنفا واحدا، والأهم من كل ذلك أنني عرفت أنني عثرت على منبع شفائي، أن التي كانت بين يديّ كانت جوهرة حقيقية أضعتها بسوء فهم وعقد أعمتني عن رؤية حقيقتها، أردت استعادتها بعد أن ضيعتها، وكنت مستعدا لفعل أي شيء من أجل استعادة ثقتها بي، أردتها أن تصدق أنني أحببتها فعلا، وأنها خلقت مني رجلا آخر لا يؤمن إلا بحبها وبمعجزتها، أردتها أن تدرك بأنني كفرت بكل نساء الأرض وآمنت بها وبعقيدتها.

جلست هي على الأريكة، غير قادرة على الوقوف أكثر، وقد هد قوتها

كل ما سمعته منه:

ـ ذهبت إلى طبيب نفسي؟

رد محاولا تخفيف الضغط بمزحه المزعوم:

ـ لقد ألقيت لتوي خطابا طويلا، وهذا كل ما شدك فيه؟

ساد الصمت بينهما للحظات، حتى رأته يقف يتجه إلى مكان جلوسها، انحنى جالسا على الأرض على إحدى ركبتيه، حتى يواجه عينيها وهو يقول:

ـ لقد كنت ميتا قبلك، قتلتني امرأة كان من المفروض بها أن تهبني الحياة، لكنها سحبتها مني غير مبالية بالوجع الذي مزق روحي وهي تستل الحياة مني، وجئت أنت وأعدت بعث هذه الحياة فيّ من جديد، أنا أدين لحبك بالحياة التي تسكنني اليوم، وأطلب من قلبك أن يمنحني الغفران، ربما ماضيّ معك لا يجعلني أستحقه بنظرك، ولكنني ميت عاد إلى الحياة، ربما لأنه فعلا يستحقها فلا تحرميه البعث على يديك من جديد، قلبي كان مشركا بكل النساء، وعندما قابلك وجد توبته فلا تحرميه منها، التوبة تجب ما قبلها وحبك يجُبُ ما قبله، فلا تحرمي مشركا تاه في سنوات الضلال، حقه في التوبة.

لم تكن "حوراء" قادرة على التفكير وكلماته تسحرها، وتحملها إلى عالم آخر بعيدا عن بيتها ومكان جلوسها، لم تجد إلا أن قالت متمسكة بخوفها ومستحضرة غضبها:

ـ وما الذي يضمن لي أنك شفيت فعلا، ما الذي يضمن لي أنك لن توجع قلبي مرة أخرى، وترميه بالغدر والخيانة، عند أول بادرة شك جديدة،

لقـد أوجعتنـي كـما لم يفعـل أحـد قبلـك، أنـا امـرأة عاشـت حياتهـا تكـره الخيانـة والنفـاق وجئـت أنـت واتهمتنـي بأكـثر شيء أكرهـه، لقـد فتحـت بقلبـي جرحـا نازفـا لم أعـرف لـه دواءً حتـى بعـد كل هـذه الشـهور، حبـك تجربـة قاسـية، موجعـة، وأنـا أحـاول أن أعيـش، أحـاول أن أسـترد حيـاتي، ولا أظـن أنـه مـن الآمـن لي أن أعيـدك معهـا، قـد تخذلنـي مـرة أخـرى وهـذه المـرة يمكـن أن تكـون قاتلـة.

جاءهـا صوتـه متوسـلا، فبرغـم محاولتـه السـيطرة عـلى نفسـه، إلا أن إحساسـه بأنـه يمكـن أن يفقدهـا إلى الأبـد هـذه المـرة، كان يخيفـه ويـزرع الرعـب في قلبـه ليجعـل صوتـه مهتـزا:

ـ في كل الأحـوال أنـت تتألمـين، قلبـك مـازال ينـزف كـما تقولـين، قلبـك مـازال وفيـا لي رغـم أننـي أوجعتـك، ربمـا هـذا الحـب الـذي يقـاوم رافضـا المـوت يسـتحق أن يمنـح فرصـة ثانيـة، فامنحينـي وامنحـي نفسـك الفرصـة للتأكـد مـن كـون التجربـة قـد فشـلت، وربمـا سـيفاجئك نجاحهـا، أنـت تطلبـين الشـفاء والرجـل الجديـد الـذي أصبحتـه، سـيفعل أي شيء في العـالم ليضمـد جراحـك ويوقـف نزيفهـا، لـن تخـسري شـيئا جديـدا إذا قبلـت الخـوض في هـذه التجربـة مـن جديـد، لا أطلـب منـك أن تثقـي بي منـذ البدايـة، لكـن امنحينـي قرينـة الشـك وراقبينـي، إذا فشـلت يمكنـك إخراجـي مـن حياتـك، وهـذه المـرة بـدون رجعـة وبـدون نـدم.

ارتسـمت عـبرات تغطـي مقلتيهـا، ألم بداخلهـا يصـارع الأمـل، حبـه مـازال يسـكنها ولكـن وجعـه أيضـا لم يغادرهـا، كيـف يمكـن أن تثـق بـه مـن جديـد، كيـف يمكـن أن تعطيـه فرصـة جديـدة لإيلامهـا أكـثر، أنى لهـا بهـذه القـوة

لتعيـده إلى حياتهـا مـرة أخـرى، بعـد كل الخـراب الـذي عاثـه فيهـا، هـي مازالـت موجوعـة منـه وبـه، مقتولـة منـه وفيـه، عاشـقة لـه برغـم كل مـا فعلـه، تعـرف أنـه كان لـه عـذره، وتفهم اليـوم وجعه بعـد أن عرفـت تفاصيله، كيـف تلومـه ومـا عـلى المريـض مـن حـرج، وهـو كان مريضـا بماضيـه، لكنهـا تريـد أن تنسـاه، منـذ أكـثر مـن سـنة وهـي لا تعيـش إلا محاولـة نسـيانه، كل يـوم تسـتيقظ فيـه، تذكـر نفسـها أن عليهـا نسـيانه، منـذ أكـثر مـن سـنة وهـي تـدرك كل يـوم أنهـا تحقـق فشـلا ذريعـا في نسـيانه، كل أيامهـا ترتجـي عودتـه، كل سـاعاتها تتمنـى لقـاءه، وهـا هـي اليـوم كل دقـات قلبهـا تطالـب بالغفـران لـه، كيـف تتحـدى الكـون الـذي يقـف في صفـه، كيـف تتحـدى أيامهـا ولياليهـا التـي تطلبـه، كيـف تقـف ضـد عمرهـا الـذي وحـده يسـكنه، انتفضـت عـلى دقـة شـاذة تذكرهـا بـالآلام التـي سـببها لهـا وقفـت وهـي تتمسـك بالدقـة الشـاذة وتقـول:

ـ لا أسـتطيع، لا أريـد أن أمـوت مـرة أخـرى عـلى يديـك، لا أريـد أن أتـألم أكـثر مـن الألم الـذي يسـكنني الآن بسـببك، لا أسـتطيع، لقـد أخرجتـك مـن حيـاتي ولا أريـد عودتـك إليهـا، ارحـل ودعنـي أنسـاك أتركنـي أعيـش.

الفصل السابع: رسالتي إليك

المرأة مثل العشب الناعم ينحني أمام النسيم ولكنه لا ينكسر للعاصفة

هيلين كلير (أديبة ومحاضرة أمريكية)

غيداء

اليـوم وأنـت تقـرأ هـذا الكتـاب، وأنـا أعلـم أن فضولـك وغـرورك سـيدفعانك لقراءتـه، هـا أنـت تعـرف كل شيء.

وهـا أنـا أوجـه رسـالتي الأخـيرة إليـك لعلـك عندمـا تقرأ هـذا الكتاب، سـتعرف تفسـير كتـابي الأول، فـلا يأخـذك غـرورك إلى التفكـير أنـك هزمتنـي حتـى بعـد انفصـالي عنـك، وأنـك بقيـت عالقـا بروحـي ومازلـت تسـكنني.

عندمـا كتبـت كتـابي الأول كتبتـه بتجربـة مبتدئـة أرادت فقـط ان ترسـم خيـالا لطالمـا حلمـت بـه، أو حالمـة أرادت أن تشـفى مـن وجعهـا بكذبـة، ولكنـك ظننـت أننـي مازلـت عالقـة بوهـم حبـي لـك، لكننـي اليـوم أكتـب تجربتـي الثانيـة بوعـي امـرأة عرفـت الفـرق بـين أن تحـب رجـلا وأن تتعلـق بوهـم رجـل، فاسـمع منـي.

أجمـل مـا كان في حبـي لـك، أننـي عندمـا شـفيت منـك كتبتـه عـلى الـورق، فرسـمتك أجمـل مـما كنـت، وأصـدق مـما عرفـت، وأرقـى مـما رأيـت منـك، كتبـت حلـم مراهقـة حتـى أتخلـص منـه.

لكننـي أدركـت وأنـا أكتبـك، أن كل مـا كان بينـي وبينـك، كان ترهـات مراهقـة اختلقتهـا أحلامهـا التـي انتظرتـك طويـلا، وعندما جئـت أنت لونتك بـكل ألوان الحـب التـي قـرأت عنهـا، وحلمـت بها، ورأيتـك أجمـل الأبطـال، وأروع الرجال، بينـما كنـت أنـت أحقرهم فخنـت، وأدناهم فجرحـت، وأسـوأهم فأهملت، ولم تـدرك كـم أنـا بكيـت، وتألمـت، لكننـي انتفضـت، ورميـت عنـي حبـك الموبـوء، أنـا اليـوم احتفـل عـن طريـق كتـابي هـذا بانتصـاري عليـك وعـلى وهمـك.

أدركـت أن عـلى المـرء أن يعـرف عـدوه حتـى يعـرف كيـف يخـوض حربـه، وأنـا عرفتـك وعرفـت معدنـك ونقطـة ضعفـك فعرفـت كي أهزمـك.

بعـدك عرفـت الحيـاة، لم أتوقـف عنـدك، بـل واصلـت المسـير، وهـا أنـا اليـوم أبـدأ مـن جديـد بدونـك، بـدون وجعـك، بـدون رواسـبك، جمّلتك عـلى أوراقي حتـى نسـيت نسـختك الأصليـة، وانتهيـت منـك عـلى أوراقـي البيضـاء، عندمـا سـطرتك عليهـا، وسـلمتك لامـرأة أخـرى، امـرأة ورقيـة، رسـمت أنـا ملامحهـا، وارتضيتهـا لـك، وأنـا لا أشـعر بأيـة غـيرة، ارتضيتـك لهـا بعـد أن أصلحتـك لهـا، وطهرتـك مـن عيوبـك، بعـد أن آلمتـك بهجرهـا لـك، وندمـك الـذي طالمـا أردت أن ألمحـه في عينيـك القاسـيتين، وقـد رأيتـه أخـيرا مرسـوما عـلى أوراقـي.

قـد يبـدو الأمـر ضربـا مـن الجنـون أن أنسـاك وأنـا أجملـك بـين طيـات كتـاب، وأنـا أعذبـك في حـب أنثـى أخـرى غـيري، أن أرسـمك رجـلا لم تكنـه يومـا وأنت معـي، لكـن عندمـا كتبـت النهايـة، وأنـا أزفـك إليهـا، كنـت أخـرج منـي آخـر مـا تبقـى منـك بداخـلي وأنـا أكتـب الفـرق بينـك وبـين بطـل روايتـي الأولى.

أدركـت لحظتهـا، وأنـا أزفـرك مـع حـبري المتدفـق مـن قلمـي، أننـي انتهيـت منـك، وعنـد دخـول الهـواء الجديـد إلى رئتـيّ، عرفـت طعمـه المتغـير، وأدركـت أنـك لم تكـن مختلطـا بـه، ضحكـت سـاعتها أنـا وأوراقـي، كمـن بـشره الطبيـب لتـوه، أن الـورم الخبيـث تـم اسـتئصاله بكامله من جسـده المتعـب، وأن الحياة تسـتقبله مـن جديـد، فتحـت ذراعـيّ أعانقهـا، أسـتبشر بالقـادم الـذي لـن تكـون أنـت فيـه، ولا جـزءًا منـه، لأننـي تخلصـت مـن عقـدتي التـي أورثتنيهـا عندمـا زرعـت فيّ الشـك في كل رجـل قابلتـه بعـدك حتـى بمحـض صدفـة، وأدركـت أنـه لا أروع مـن الكتابـة علاجـا لمـن أخطـأ الحـب، أخطـأ الرفيـق،

وأخطأ الطريق، وكانت كلماتي علاجي منك، من ورمٍ تعلق بقلبي وكنت أظنه حبا، كانت أحرفي التي نامت مطمئنة على أوراقي تبعث الراحة إلى داخل قلبي وتنزع آخر سحب الغشاوة عن روحي، لتعزز إدراكي أنك ما كنت يوما في حياتي رجلا حتى تستحق أن أبكيك، فلطالما كنت نذلا حاول ارتداء عباءة الرجولة ليوهمني أنه من أهلها، لكنه لم يتحمل ثقلها، الرجولة عباءة ثقيلة لا يقدر على حملها إلا من ولد رجلا، بينما كنت أنت ذكرا حُسبت خطئا على جنس الرجال.

اليوم، أوقع إهداء روايتي (إلى الفرح من جديد، الفرح الذي أستحقه وسأطارده لو أبى الحضور راغبا، فلا أحق بالفرح، من قلب عاد من الخذلان، وقلبي عاد من خذلانك الذي ظنه يوما حبا، فهنيئا له العودة والرجوع.

إلى الحياة التي تفتح ذراعيها لي، وسأعانقها بكل ثقة لأنني ما عدت أهابها، وما عادت مظاهرها الزائفة تغريني، إلى روحي التي لم يغرقها سوادك وتمسكت بألوانها الجميلة، إلى قلبي الذي مازال يؤمن أنني أستحق الحب، أستحق رجلا لا يغير ملابس روحه ليغري بها النساء، بل يحتفظ بجوهرها ليسعد به جوهرة هي له كل النساء)

ها أنا أكتب روايتي الثانية، أكثر نضجا، أكبر استيعابا وأقدر على التمييز بين الخطأ والصواب، فلتصلك روايتي لتدرك حجمك بين الرجال، ولتصلك روايتي لتعرف أنني انتهيت منك.

شيماء

لم تكن شيماء تذهب إلى تلك الحصص التلفزيونية، ولم تكن تفعل ما تفعله، بغرض التكريم ولا الشهرة، إنما بغرض التوعية، اعتبرتها رسالتها في الحياة، لطالما عاشت شيماء تسأل نفسها عن سر اختلافها، لطالما عانت من رفض الناس لهذا الاختلاف، لكنها أدركت أخيرا أن اختلافها هو ميزتها، وأن مقاييس الغير ليست بالضرورة هي الأصلح، استطاعت شيماء أن تتقبل اختلافها دون أن ترغم نفسها على السير ضمن السرب الذي كان يتخذ الطريق الخاطئ، عندما تكون على يقين أنك على صواب لا تكترث للأصوات التي تصرخ بك أن تعود، واصل تقدمك ودعهم يصرخون، سيعرفون في النهاية أنهم كانوا على ضلال وستكون أنت قد تقدمت بمسافة كافية تجعلك أقرب للقمة، ولتعلم أنه ليس بإمكان الجميع الوصول إلى القمة، فذاك مكان لا يصله إلا من علم نفسه الصبر والجلد، ودربها على تخطي العثرات والنهوض من السقوط لمواصلة المسير دون فتور الهمة.

تبنت شيماء رسالة التوعية لحماية فتيات بريئات قبل حدوث الكارثة، وإثارة انتباه الأولياء حتى يتفطنوا للمصيبة ويتصدوا لها، التوعية من أجل حرص الأولياء على أولادهم ومراقبة تصرفاتهم، أي تغير في سلوكهم هو إنذار بالخطر ليس عليهم تجاهله، لا يكفي أن توفر لطفلك حاجياته المادية وتتخلى عن تنمية روحه، وصونها من أي اعتداء ، طفلك قاصر، لكنك راشد مسؤول عنه، دورك أن تأخذ بيده إلى بر الأمان، وبعدها تركه

يسير بما زرعته بداخله من شجاعة ونباهة.

كانت رسالتها أيضا موجهة لتشجيع من لم تستطع البوح أو قول "لا" ربما قد تفعل أخيرا، عندما تدرك أن هناك من سيؤيدها ويشد على يدها، الصمت مدمر، ومجتمع يؤمن بالمظاهر قبل الجوهر، هو مجتمع يساعد هذه الوحوش على أن تكبر، وهي تختبئ في زي إنسان، السكوت لم يعد يجدي، الخوف من نظرة المجتمع لن يفيد أحدا في شيء، حان الوقت لتصرخ كل مُتَحَرَشٍ بها في وجه المُتَحَرِشِ، فهو أجبن من أن يصمد، لم يقوِّه إلا سكوت الفتيات، وعجز مجتمع ناقص يحاسب الضحية ويترك الجاني، آن للأشخاص الصامتة أن تدرك أن سكوتها على الباطل إعلاء له، وآن للأصوات الخائفة أن تدرك أن الحق أحقُّ أن يُسمع.

كنت قد قلت لكم تذكروا جيدا الشيماء، فهي تستحق أن تبقى عالقة في الذاكرة، أدركت شيماء أنها لم تخلق لتكون امرأة عادية، وأن الاختلاف قد يكون أجمل ما في الصورة، أدركت أن الله اختارها لرسالة كبيرة في الحياة، "الشمطاء" عادت "الشيماء" امرأة الرفعة والإباء، امرأة بروح العنقاء، لا تكسرها أعتى الرياح، وأشد العواصف، تخلق من رماد وتولد من رحم النيران.

كان قد وقف هو أيضا ينظر إليها، وسكاكين الخيبة تزرع في قلبه، ألم يعتصر روحه، وقد طرد لثاني مرة من جنة حبها، مرة خرج هو بإرادته من حياتها، وها هي الآن تطرده بإرادتها هي، بقي للحظات يطالع وجهها، لا يعرف ما يفعله، ولا ما يمكن أن يقوله لثنيها عن عزمها، لكن العجز كان قد تملكه، التقت نظراتهما، وتعانق الألم الموجود فيها، أدرك أنها تتألم مثله، ولكن الخوف يكبلها، ذات يوم سكنه هو، عدم القدرة على الثقة بها، وها هي اليوم نفس المعضلة تسكنها هي، عدم قدرتها على الثقة به، استأذن واستدار منصرفا، بينما سقطت هي على الأريكة تبكي بصوت كاد يقطع نياط قلبه، عاد إليها، وجلس قربها، محاولا مواساتها وإسكات دموعها، بينما اشتد نحيبها، وعلا صوتها.

كانت والدتها تراقب كل ما يحدث من بعيد، وتمنع نفسها من التدخل، لأنها ترغب في حل هذه المشكلة، هي من عاشت مع ابنتها عذاباتها وآلامها، هي أكثر من يدرك اليوم، أن شفاء ابنتها لن يكون إلا على يد هذا الرجل، الجالس بالقرب من ابنتها، يكاد يبكي لبكائها لولا الخجل الذي يمنعه أو ربما رجولته هي من تمنعه.

هذا الرجل الذي جاء يقص عليها قبل وصول ابنتها، وجعه وحاجته لوحيدتها حتى يتم شفاءه على يديها، ويحكيها عزمه على مداواة جراح ابنتها وقد عرفت منه تفاصيل لم تخبرها بها صغيرتها، ولكنها عرفت أيضا بحكمة سنوات عمرها، أن هذا الرجل يعشق ابنتها ولمست صدق

حبـه في صـدق بوحـه.

اسـتجمعت "حـوراء" قواهـا أخـيرا، توقفـت عـن البـكاء، وهـي تنظـر إليـه، رفعـت قبضـة يدهـا، وراحـت تـضرب بهـا صـدره، وهـي تقـول في يـأس:

ـ لمـاذا لا أسـتطيع نسـيانك؟ لمـاذا لا أسـتطيع اقتـلاع حبـك مـن قلبـي كـما فعلـت أنـت؟ أريـد أن أوجعـك، أريـدك أن تتـألم بقـدر الألم الـذي زرعتـه في قلبـي، أريـدك أن تنـدم عـلى حبـي الـذي أضعتـه، لكننـي لا أسـتطيع، لا أملـك إلا أن أحبـك، لا أجيـد سـوى حبـك، حتـى وأنـت تؤلمنـي، حتـى وأنـت توجعنـي، حتـى وأنـت تتهمنـي بالخيانـة، لم أملـك فعـل شيء سـوى حبـك. تركهـا تفـرغ جـام غضبهـا عـلى صـدره الموجـوع، ليـس مـن ضربـات قبضتـي يديهـا، وإنمـا مـن رؤيتهـا تتـألم هكـذا، وهـو غـير قـادر عـلى فعـل شيء لإيقاف وجعهـا ثـم أجابهـا قائـلا:

ـ لأن اللعنـة التـي أصابتنـي أصابتـك أيضـا، أنـا منـذ عرفتـك، لم أكـن يومـا قادرا إلا عـلى حبـك، حتـى وأنـا أصـدق خيانتـك، لم أملـك سـوى أن أحبـك، حتـى وأنـا أؤذيـك رغـما عنـي، لم أكـن سـاعتها سـوى عاشـق مجـروح، لا يقـدر عـلى شيء، إلا عـلى حبـك.

هـدأت عاصفتهـا أخـيرا، وهـي تسـمع كلماتـه هاتـه، رمقتـه بنظـرة مرعوبـة، وهـي تقـول في فـزع:

ـ أنـا خائفـة، خائفـة مـن منحـك فرصـة أخـرى، فتقتلنـي هـذه المـرة، خائفـة مـن ألم أكـبر مـن الـذي يسـكنني، يمكـن لأشـباح ماضيـك أن تسـتيقظ مـن جديـد في أيـة لحظـة، ويمكـن لسـيف شـكك أن يقتلنـي ويجهـز عـلى قلبـي.

جاءها صوته مجروحا مغلفا بنبرة تبدو هادئة رغم صخب صاحبها:

ـ هـذا الرجـل الـذي يسـتجدي حبـك هـو أكـبر دليـل عـلى أن مـا تخشـينه لـن يحـدث، هـذا الرجـل الواقـف بـين يديـك اليـوم أكـبر دليـل عـلى شـفائي لأننـي لا أربطـه اليـوم بصـورة الرجـل الـذي كان يسـتجدي حـب والـدتي والـذي أقسـمت ألا أكونـه، لم أعـد أخـشى أن أكـون صـورة منـه، ولا أربطـك أنـت بالمـرأة التـي كان يسـتجديها رغـم أنهـا خائنـة، حتـى زرعـت صورتهـا في عقـلي أن كل النسـاء خائنـات، لم يعـد وجههـا يظهـر لي عـلى وجـه النسـاء، ولم أعـد أخـشى أن تكـوني صـورة منهـا، هـذا الرجـل اليـوم انفصـل عـن ذلـك المـاضي ولا يرجـو إلا أن يعيـش معـك الحـاضر والقـادم.

صمتـت وهـي تسـتوعب صـدق كلماتـه، إنـه يعلـن حاجتـه إليهـا دون خـوف مـن اسـتغلالها ضعفـه، دون أن يـرى في ذلـك تهديـدا لرجولتـه، دون أن يربـط نفسـه برجـل ضعيـف كان والـده، ودون أن يرسـم وجـه الخيانة عـلى ملامحها، لكنهـا مازالـت خائفـة أو ربمـا مـترددة (هـل يسـتحق فعـلا ثقتهـا مـن جديـد؟ أيسـتحق أن تجابـه معـه ماضيـه دون الخشـية مـن الغـرق معـه وفيـه؟)

رأى صمتها ولمست روحه تخبُط روحها فبادرها قائلا:

ـ هنـاك ألم كبـير سـكن روحينـا منـذ افترقنـا، كمريـض يائـس عـلى وشـك المـوت، لـن يخـسر أحدنـا شـيئا إذا مـا جـرب هـذا العـلاج عـلى أمـل الشـفاء، أنـا وأنـت علـة بعضنـا، وشـفاء بعضنـا، المقاومـة لـن تزيـد إلا في حجـم الألم، قـد جربنـا العلـة فلـمَ لا نجـرب الـدواء.

نظـرت إليـه، وقـد بـدأت ملامـح وجههـا تلـين، لكـن الخـوف والألم مـازالا يسـكنانها يرفضـان مغادرتهـا ويجعلانهـا تحـاول التمسـك بخيـط المقاومـة الـذي بـدأ ينسـل مـن يديهـا فعـاد غضبهـا:

ـ أنا أكرهك، أكرهك لكل ما فعلته بي، ولكل ما تفعله بي، لقد اقتحمت حياتي وأغرقتني في الأمل، ثم تركتني وأغرقتني في اليأس والوجع، والآن تعود محاولا إغراقي في الأمل من جديد، اتظن أنني لعبة بين يديك؟ ترحل متى شئت وتعود متى أردت، أتظن أنني مسلوبة الإرادة لا أملك الخيار؟ أنت مخطئ لأنني كما محوتك من حياتي طيلة هذه الأشهر وعشت بدونك يمكنني أن أواصل الحياة بدونك وبدون وجعك وعقدك.

ابتسم هو متألما متفهما أن كرهها ما هو إلا عشق قاتل، والكره عند العاشقين وجه آخر للحب ومدركا أن مقاومتها بدأت تلين فرد قائلا:

ـ أعرف أنني أوجعتك لكنني أنا من كنت مسلوب الإرادة منذ التقيتك، لأنني لو كنت أملك القرار ساعتها وبكل عقدي وقناعاتي ما كنت أحببتك، ولو كنت أملك الخيار لما تركتك وأنا أفقد عقلي برحيلك، لو كنت حرا في اتخاذ قراراتي لكنت عدت إليك من يوم سألت لأنني أحببت، لكنني كنت خائفا عليك مني، وأردت أن أعود إليك معافى من علتي وعقدي.

صمت ينظر لوجهها الذي تغرقه الدموع ثم أضاف:

ـ أما بالنسبة لكرهك فأنا أيضا أعشقك، حد الألم الرهيب، والخوف الكبير، النابع من حاجتي المخيفة لوجودك في حياتي، أعشقك بحجم كل قناعاتي التي تغيرت على يديك، وبحجم الثقة التي أتعلق بها وأنا أسلمك قلبي وحياتي القادمة ها أنا أسقط ضلوعي وأعري قلبي أمامك، آملا أن تحتضنيه وتنشري الدفء فيه، فهل ستفعلين؟

سمع صوتها من بين شهقاتها:

ـ ستتركني إن فعلت، وسأكرهك أكثر

انتفض مؤكدا بعزم من تيقن أنه يخوض معركته الكبرى لاسترداد حياته التي سلبت منه في غفلة:

ـ لن أفعل، أقسم أنني لن أفعل، لقد أدركت أن روحي معلقة بروحك، وأنني أؤلم نفسي عندما أجعلك تتألمين، أيقنت أنني أريد الشفاء، وقد أخبرتني يوما، أنه على الرجل الذي يتعلق بك، أن يختار أن تكوني وجعه، أو ترياقه، وأنا اخترت أن تكوني ترياقي، وأعلم ألا شفاء لي إلا على يديك. لا تتذكر هي أنها قالت ذلك ولكن هو لم ينسى يوما، كانت كلماتها ترن دائما في أذنيه تذكره أنه اختار الوجع عندما تعلق بها وآذاها، لكنه اليوم يريد أن يشفى بها ويرغب أن يكون دواءً لما سببه لها من ألم، صمت قليلا ثم أردف:

ـ وجعك موجع بشكل مميت، دعيني أكون لك الترياق، حتى تشفي أنت، وأعيش أنا

نظرت إليه بهيام مجروح، فرغم الألم، هي مازالت تعشقه، ولم تنجح يوما في الكف عن حبه، مازالت خائفة من الاستسلام له من جديد ومن الضياع فيه مرة أخرى، لكنها تدرك أنها تائهة به أو بدونه:

ـ لو أوجعتني مرة أخرى سأموت، لن أحتمل هذا الألم من جديد

ملأه إحساس قاتل بالعجز وهو يسمع تذللها المستتر فراح يطمئنها بكلمات حملت صدق مشاعره:

ـ قبل أن أفكر مجرد التفكير في إيلامك سأموت أنا بوجعك قبل ذلك

وضعت أناملها المرتعشة على شفتيه، تسكت جملته المؤلمة لمجرد سماعها:

ـ في كل حالاتي لا أملك إلا أن أكون موجوعة بك

ـ استسلمي إذن لقدرنا، واتركينا نداوي وجع بعضنا

ـ لم تعد لدي قدرة على المقاومة، تعبت وأريد أن أستريح

كانت عاجزة عن مقاومة هذا الإحساس الرهيب بحاجتها إلى منحه فرصة ثانية، لعلها تكون فرصتهما معا في إيجاد مسكن للآلام التي تسكنهما، ولعلها مع الوقت تندمل الجراح وتشفى وتعرف السعادة طريقا لحياتهما معا.

وضع جبينه على جبينها غير مصدق أنها استسلمت أخيرا، أغمض عينيه وهو يستوعب أنه ورغم محطات حياته الكثيرة، إلا أن عمره مرّ بين امرأتين، واحدة قتلته، وأغرقته في العتمة، والأخرى أحيته وأضاءت دروب عمره، أدرك حقيقة أنه يمكن لامرأة أن تقتلك، ويمكن لأخرى أن تعيد بعث الحياة بداخلك من جديد، فقط لو أنك عشقت.

وفاجأته نبرة صوته المخدر وهو يعلنها لها صراحة:

ـ تزوجيني ما عدت أطيق صبرا على البعد، تزوجيني واجعلي مني أسعد الرجال، وأعدك أني سأكون في حبك أصدق وأنقى الرجال.

الخاتمة

(اللقاء، وأخيرا اجتمعنا)

حسبك من السعادة، ضمير نقي، ونفس هادئة، وقلب شريف

مصطفى لطفي المنفلوطي (أديب وشاعر مصري)

ربما ومنذ بداية القصة تتساءلون ما دخل شيماء وحوراء في قصتي؟ لماذا وأنا أكتب روايتي أكتب عن فتاتين لم يكونا يوما حاضرتين في أحداث قصتي.

تتذكرون أن الشيماء تخلى عنها والدها هي ووالدتها، وعمرها أربع سنوات، وحوراء أيضا تخلى عنها أبوها، وتركها مع والدتها، عندما كان عمرها ثلاث سنوات، ووالدي تخلى عنا أنا وأمي، عندما بلغت الثانية من العمر، كان هذا الوالد هو نفس الرجل، كان (عيسى كالاس) والدنا نحن الثلاثة، والذي تخلى عنا ثلاثتنا، ليتزوج بامرأة مقيمة في الخارج، والدا ورثنا الحرمان فكان سببا لآلام صادفناها في حياتنا، ولم نعرف كيف نواجهها بداية، لأننا كنا نعاني من الحرمان، ومن غياب السند، لكننا تعلمنا في الطريق برغم الجراح ورغم الألم، وهل هناك خير من الألم معلما في هذه الحياة، واجهنا جراحاتنا وضعفنا، عقدنا ونقصنا، وانتصرنا في النهاية ثلاثتنا، كل واحدة حصلت على شيء مختلف، لكن كل واحدة فينا، خرجت منتصرة من معركتها، مع نفسها أولا، ومع جراح سببها لها الغير، كل آلامنا منذ البداية، كان سببها رجل، رجل كان يفترض به أن يكون الحامي لنا، والمرشد في هذه الحياة، لكنه ترك أيدينا في أول الطريق، وأول العمر، ومضى يبحث عن حياته هو، وبعدها كان الجرح من الرجل أيضا، الشيماء تغلبت على التحرش الذي تجسد في صورة مدير مدرستها، وحوراء تغلبت على عقد رجل أراد أن ينتقم من أمه في كل النساء، ويتغلب على ضعف والده، فأعادته إلى قلبها، أعادته إلى الأمان، وإلى نفسه قبلا، وأنا تغلبت على رجل، كان هو الطمع والخذلان، لكن في

طريقنا، تغلبنا على أشياء أخرى، تغلبنا على ضعفنا، على إحساسنا بالنقص والحرمان، على اعتمادنا على غيرنا ليرمم ما كان مدمرا بداخلنا، وعرفنا في النهاية أن لا أحد يمكن أن يقف بك، إذا رفضت أنت الوقوف بنفسك، لا أحد يمكن أن يصلحك لنفسك، إذا أبيت أنت الإصلاح، لا أحد قادر على هزم شياطينك، إذا لم تقرر أنت محاربتها، وفي النهاية، أنت صديق نفسك الأول وأنت عدوها الأكبر، وعليك أنت أن تختار إما أن تمد ذراعيك توقف نفسك وتحتضنها أو تضربها وتمنعها من النهوض ومواصلة المسير.

تتساءلون حتما، كيف عرفنا أننا شقيقات؟ عندما انتشرت قصة شيماء على مواقع التواصل الاجتماعي، والمحطات الفضائية، سمعنا بها أنا وحوراء كأي شخصين عاديين، وتعاطفنا معها، لكن كل واحدة منا، فوجئت بعدها، عندما استفاضت الصحافة في منح معلومات عن هذه الفتاة، التي صنعت الحدث، وفازت بالتحدي، أن شيماء لقبها العائلي هو(كالاس) ووالدها تخلى عنها وعن والدتها وهي في عمر الرابعة، اتصلت بها على حسابها في الفيسبوك، وبعد تبادل المعلومات عرفت أنها ابنة (عيسى كالاس) وأن والدها هو نفسه والدي، وعرفت منها أن هناك فتاة ثالثة تتصل بها لنفس أسبابي، وأنها أيضا ابنة والدنا.

عرفنا فيما بعد، أن والدنا كانت له زوجة مختلفة في ثلاثة ولايات مختلفة من أرض الوطن، وأنه ترك لكل واحدة فينا حملا من الحرمان، عاشته كل واحدة منا على طريقتها.

هذا ما عرفناه طبعا، وربما كان له زوجة أخرى، ولنا إخوة أو أخوات آخرون في أماكن أخرى، من يدري.

التقينـا أنـا وشـقيقتيَّ بعدهـا، في حفـل زفـاف حـوراء، كان اللقـاء مليئـا بمشـاعر متناقضـة، متصارعـة بداخـل كل واحـدة فينـا، في بدايـة اللقـاء، كانـت كل واحـدة منـا متحفظـة، غـير مدركـة للطريقـة الأنسـب للتعامـل مـع الأخـرى، ففـي النهايـة كنـا غريبـات عـن بعضنـا لا تعـرف إحدانـا الأخـرى، إلا مـن خـلال محادثـات عـلى الفيسـبوك، بعدهـا بانتصـاف حفـل الزفـاف، دعـت منسـقة أغـاني الحفـل، شـقيقتيّ العـروس للرقـص معهـا، عندمـا أتذكـر ذلـك الموقـف اليـوم، أضحـك عـلى ردة فعلنـا، لحظتهـا بقيـت أنـا وشـيماء مصدومتـين ننظـر إلى بعضنـا في تسـاؤل (هـل تقصدنـا أنـا وأنـت؟) كيـف بـين عشـية وضحاهـا، أصبحنـا شـقيقتيّ العـروس، بعـد عمـر مـن كـون كل واحـدة فينـا، هـي الابنـة الوحيـدة لوالديهـا.

بعـد إلحـاح مـن المنسـقة، التـي كانـت تنظـر إلينـا مبتسـمة، وهـي تكـرر جملتهـا، قمـت أنـا أولا بـتردد، ونظـرت إلى الشـيماء التـي اسـتقامت هـي الأخـرى محرجـة، وتقدمنـا إلى سـاحة الرقـص، أيـن كانـت حـوراء واقفـة بانتظارنـا، يبـدو عليهـا الإحـراج أكـثر منـا، ثـم بـدأت تتحـرك بحـركات بسـيطة وهادئـة، فتبعتهـا أنـا وبعـدي الشـيماء، ورقصنـا ثلاثتنـا رقصـة محرجـة، تحـت تسـاؤل المدعويـن، مـن أيـن ظهـرت شـقيقتيّ حـوراء هاتـين ومتـى؟

المشـكلة في لقاءنـا ذاك، أننـا لم نكـن نعـرف بعضنـا، إلا عـن طريـق محادثاتنـا الكتابيـة عـبر موقـع الفيسـبوك، وأول لقـاء حـسي لنـا، كان أمـام جمـع غفـير مـن المدعويـن، الذيـن كانـوا يراقبوننـا بأعينهـم الفضوليـة، وكأنـه لم يكـن يكفينـا كـم المشـاعر المتضاربـة، التـي كان علينـا التعامـل معهـا، ونحـن نكتشـف بعضنـا لأول مـرة، فزدنـا عليـه ضغـط اللقـاء أمـام النـاس، فتهنـا

وسـط مشـاعرنا، ووسـط إحراجنـا.

أول تواصـل حـسي، كان عنـد اقـتراب نهايـة حفـل الزفـاف، وبدايـة أخـذ الصور العائليـة، عندمـا طلبـت منـا حـوراء، مشـيرة لنـا بيدهـا أن نتقـدم إليهـا مـن أجـل أخـذ صـورة، وقفنـا تتوسـطنا هـي، ثـم رفعـت يديهـا تحيـط بهـا خـصر كل واحـدة منـا، والتصقنـا ببعضنـا، مبتسـمات للصـورة، بينـما التفـت ذراعينـا، أنـا وشـيماء عـلى خـصر العـروس، لتتعانـق أجسـادنا، في شـوق طـال كتمانـه.

بعدهـا عدنـا إلى أماكننـا وكم من المشـاعر الجديدة يتضـارب بداخل كل واحدة فينـا، وقبـل مغـادرة العـروس مـع زوجهـا، عـادت حـوراء تسـتدعينا بإشـارة مـن يدهـا، ودموعهـا تجـري عـلى وجنتيهـا، التفتـت إلينـا ونحـن أمامهـا، وهي تودعنـا وتطلـب منـا مواصلـة التواصـل مـع بعضنـا، ثـم انطلقـت شـهقاتها، واقتربـت تحضننـا، أنـا وشـيماء بكلتـا ذراعيهـا، فانطلقـت مـع هـذا الحضـن المفاجـئ كل أشـواقنا المكتومـة، التـي حافظنـا عليهـا منـذ بدايـة الحفـل، ورحنا نبـكي ثلاثتنـا، بـكاء مـن وجـد جـزءًا مـن روحـه، جـزءًا كان ضائعـا، دون حتـى أن يعلـم هـو بضياعـه، بكينـا إحساسـا بالنقـص، عشـناه طيلـة حياتنـا، دون أن تعـرف أو تـدرك إحدانـا سـبب هـذا الإحسـاس بالنقـص، أو مصـدره، بكينـا إحساسـا بالغربـة، عشـناه ثلاثتنـا بعيـدا عـن بعضنـا، دون أن تعـرف إحدانـا بوجـود الأخـرى، بكينـا قلوبنـا التـي تاهـت كل هـذا العمر عـن بعضهـا، وبكينا فرحتنـا بأننـا وجدنـا أخـيرا بعضنـا، بكينـا أخـوة تمنيناهـا عمـرا، ووجدناهـا أخـيرا، كان حضنـا حمـل هـذه المـرة مـن الشـوق الكثـير ومـن السـعادة أكـثر.

انتهـت الحفلـة، وعـادت كل منا إلى حياتها، لكننا لم ننقطـع عن بعضنا، لم نذخر وسـيلة اتصـال اخترعت إلا واسـتغلينها لنقـترب من بعضنا، الهاتف، الفايسـبوك،

والسكايب، أصبحنا نتحدث مع بعضنا صوتا وصورة، وزرنا بعضنا كلما استطعنا، توطدت علاقتنا، ونحن نحاول تعويض العمر الذي فاتنا معا. قامت شيماء بإجراء عملية جراحية، فقط رفع جفنيها لتحسين الرؤية لديها، رفضت إجراء أي تعديل آخر على شكلها، وأعلنت أنها راضية تماما على ما منحها الله إياه وأنها لن تسعى لتغيير شكلها، وعلى الناس أن تعتاد مقاييس أخرى للجمال غير تلك التي اخترعها أولئك الذين اتخذوا من جسد المرأة ووجهها وسيلة للاتجار، عندما أنظر إلى الشيماء لا أرى قبحها الذي عرفت به طيلة حياتها، لأن من اخترع كذبة الجمال أغفل إخبارنا أنك عندما تنظر بعيون الحب لا ترى القبح، أرى اليوم في الشيماء امرأة شجاعة قاومت ماضيها وأوجاعها، وعندما أرى نظرات الناس إليها، لا أجد إلا الإعجاب والود والاحترام، نجحت شيماء في كسر قاعدة الجمال التي ابتدعها البعض، أصبح الناس يرونها بعين الحب فلا يرون إلا جمال روحها، حتى وجهها تغير ملأته لمحة سحر غريبة، عيناها اتضحتا بشكل أوسع وأجمل، حتى شفتيها الممتلئتان، كان هناك من يعلق أن هناك نساء تدفع الكثير من المال للحصول على مثلها، تضحك الشيماء ضحكة منيرة تبعث الطمأنينة في القلب، الشيماء فرضت مقاييس جديدة للجمال، ربما لأنها رسمت روحها على ملامح وجهها وفقط.

أنجبت حوراء ولدا أسماه والده "مُتَيم" حتى يذكرها بوالده العاشق المتيم كلما نادت اسمه، استقامت حياتها مع زوجها، ومازال حبهما يعطيني الأمل، أنني يمكن أن أصادف حبا حقيقيا ذات يوم، على أن أحسن الاختيار، لأن الدنيا مازالت بخير وكما هناك نساء طيبات هناك

أيضا رجال طيبون، وأن في هذا العالم هناك رجل مازال ينتظرني في مكان ما، ليحبني بكل عيوبي ومميزاتي.

أصبحت أنا بقدرة قادر كاتبة روائية، فلم تكن الكتابة يوما حلما من أحلامي، ولكنني بعد غرقي في القراءة هروبا من حزني، وجدت في الكتابة السبيل لإيجاد نفسي التي تاهت مني، وعلاجا لرواسب تركها الزمن بداخلي، فأخرجتها في كتاباتي.

قرأت يوما لكاتب يدعى كليف ستيبلز لويس مقولة يقول فيها (إذا كنت عاشقا لشخص ما بشدة فاعلم أنك غالبا ستتأذى بقوة، ولكن مع ذلك فالأمر يستحق كل هذا العناء) أوافقه الرأي في الشطر الأول من مقولته فأنا عشت ذلك وتأذيت كثيرا بسبب عشقي، لكن أخالفه في الشطر الثاني، الأمر لم يكن يستحق كل ذاك العناء، لو أنني التقيت يوما بهذا الكاتب في زمن آخر، أو عالم آخر لطلبت منه ألا يقول كلاما قد يتسبب في ضياع المرء، لو أنني اتبعت مقولته تلك لما أنقذت نفسي بإيماني أن الأمر يستحق العناء، إنما الحقيقة أنه إذا آذاك شخص عشقته بشدة وأوجعك هو بشدة فانه لم يستحق يوما مشاعرك، إن من يؤذيك متعمدا مصرا، لا يستحق حبك، اتركه وانتصر لنفسك برحيلك عنه وببداية جديدة من دونه، إذا كنت شخصا يجيد العشق ويعتنق شريعة الوفاء فلا ترضى بأقل ممن يقدر ذلك ويبادلك العشق بعشق أكبر والوفاء بوفاء أعمق. وبعد كل ما حدث، أدركت أن الحياة جُعلت لنعافرها وتعافرنا، وأن النجاح لن يكون يوما حليف من استسلم، أو جَبُن، أن من مبادئ السلام والطمأنينة أن تحب نفسك أولا وتقدرها، ولكي تحب نفسك اعمل على

أن تجعلها نفسا طيبة بمشاعرها قوية بمبادئها، وبعدها عافر ظروفك لتستحق حياة أفضل، وها أنا مازلت أصارع أشباحي، ولكنني لم ولن أستسلم، وكذلك فعلت شيماء وحوراء.

في النهاية لا يسعني إلا أن أقول: على المرء أن يقاتل من أجل حلمه، من أجل حقه في الفرح مادام فيه نفس يمكنه أن يعافر به،، عليه ألا يستسلم لليأس، ولا ينجر وراء أولئك الذين اتخذوا مهمتهم في الحياة إحباط الآخرين وتدمير سعادتهم، إذا أردت الحصول على حياة تليق بك، كن أنت لائقا بها، فعلى قدر همتك تعطيك الحياة، وعلى قدر إيمانك تتحقق الأمنيات، فقط اجتهد، وصدق حلمك.

قاتل من أجل حلمك، من أجل حقك في الفرح، مادام فيك نفس يمكنك أن تقاتل به، لا تستسلم، استسلامك نصر لأعدائك صنعته بيديك وأهديتهم إياه، عش كالمحارب الذي يستحق الحياة، فإذا رحل يوما كانت العزة عنوانه والعنفوان شعاره.

كتبت ما بين أواخر سنة 2017

سنة 2018 وأوائل سنة 2019

على فترات متباعدة ومتفرقة

تمت بحمد الله

لطيفة قرناوط